الفصل الخامس

فترة الحجابة

١ ـ فترة حكم استبدادى :

تتمثل هذه الفترة فى السنين التى حكم الأندلس فيها من الناحية الرسمية الخليفة هشام الثانى[١] الذى بويع بعد موت أبيه الحكم المستنصر . أما من الناحية الحقيقية ، فقد كان الحكم لمحمد بن أبى عامر ، الذى عمل حاجباً للخليفة وتلقب بالمنصور[٢] ، ثم لابنه عبد الملك ، الذى خلف أباه فى الحجابة وتلقب بالمظفر[٣] ، ثم لابنه الثانى عبد الرحمن ، الذى عمل عمل أبيه وأخيه وتلقب بالمأمون[٤] .

ذلك أن هشاما بويع بالخلافة ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، فلم يكن يستطيع أن يلى الأمر بنفسه ؛ وتصادف أن كان من رجال القصر وقتئذ ، رجل ذكى طموح ، هو محمد بن أبى عامر ، الذى تمكن من انتزاع السلطان لنفسه شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح الحاكم الفعلى بعد فترة وجيزة[٥] . ثم سار ابناه من بعده على سننه ؛ حتى لم يبق لهشام مع المنصور وابنيه من بعده إلا اسم الخلافة فقط[٦] .

وابن أبى عامر من نسل عبد الملك المعافرى ، أحد المحاربين العرب الداخلين مع طارق بن زياد . ويتصل نسبه ببنى عامر إحدى قبائل اليمن . وقد استوطن جده

---

(١) بويع بالخلافة سنة ٣٦٦ وخلع سنة ٣٩٩ هـ (٩٧٦ – ١٠٠٩ م)

(٢) استأثر بالحجابة بعد أن سجن المصحفى سنة ٣٦٧ وظل حتى توفى سنة ٣٩٢ هـ (٩٧٨ – ١٠٠٢ م) .

(٣) عمل بعد موت أبيه من سنة ٣٩٣ إلى أن توفى سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٢ – ١٠٠٨).

(٤) عمل بعد أخيه شهوراً حتى قتل فى رجب سنة ٣٩٩ هـ (مارس سنة ١٠٠٩) م وعلى هذا تكون فترة الحجابة نحو ٣٢ سنة .

(٥) انظر أخباره وتاريخ فترته فى : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨٢ وما بعدها . وفى النفح ج ١ ص ١٨٥ وما بعدها . وانظر أيضاً : Levi, Historia. pp. 397 ff.

(٦) انظر فى تاريخ المظفر : المصدر السابق ص ٤٣٧ وما بعدها ، وفى تاريخ المأمون نفس المصدر ص فى ٤٥٥ وما بعدها .

فليم الجزيرة الخضراء ، وكان أبوه من علماء عصره . أما محمد بن أبي عامر نفسه فقد رحل إلى قرطبة شاباً يطلب العلم ويتمرس بالأدب ، وبدأ حياته العلمية كاتب عرائض على باب القصر الخليفي بقرطبة ، ثم انتقل إلى عمل في القصر ، حيث اختارته الملكة صُبْح ليكتب عنها . ثم زكته عند الخليفة الحكم المستنصر ؛ فولاه بعض المناصب المالية والقضائية . وأسند إليه الإشراف على أموال ابنه الأمير هشام ولي العهد . ولما مات الخليفة الحكم . كان ابن أبي عامر أحد الشخصيات الكبيرة في القصر . والمرموقة في الدولة . وقد وصل إلى ما وصل إليه بمساعدة الوزير المصحفي صديقه . والملكة صبح المعجبة به .

وقد تاقت نفس ابن أبي عامر إلى انتزاع السلطان . ولم يكن في الميدان وحده ، بل كان هناك الحاجب المصحفي ، وهناك القائد غالب ، ثم هناك الصقالبة وعلى رأسهم جؤذر وفائق . وقد استطاع ابن أبي عامر أن يتغلب على هؤلاء جميعاً ، وأن يضربهم الواحد بعد الآخر ، فتعاقد أولا مع المصحفي للقضاء على نفوذ الصقالبة ، ثم اتفق ثانياً مع غالب القائد للتخلص من المصحفي الوزير ، ثم حارب غالباً آخر الأمر فقضى عليه . وانتهى الأمر بتفرده كأعظم شخصية في الدولة بعد الخليفة . ولكي يطغى على الخليفة أيضاً حجبه عن الناس حجباً حقيقياً وصرف هو كل شئون الدولة ، وما زال ينتزع لنفسه كل يوم كسباً جديداً حتى صارت كل السلطات في يده ، وكاد الناس ينسون الخليفة المؤيد ، أمام الحاجب المنصور .

وقد كان ابن أبي عامر ، محباً للجهاد كثير الغزوات ، حتى قيل إنه كان يغزو كل عام مرتين ، وإن غزواته قد بلغت نيفاً وخمسين ، وإن النصر كان حليفاً له ، حتى استحق بجدارة لقب المنصور . فقد اجتاحت جيوشه عدة مرات أقاليم مسيحي الشمال ، وانتصرت في قشتالة وجليقية وقطلونية[1]

---

(١) اتخذ لقب المنصور سنة ٣٧١هـ . انظر : البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٧ .

وأخيراً مات ابن أبي عامر أثناء عودته من غزو قشتالة ، ودفن بمدينة سالم ، بعد أن كفن بكفن كان يحمله دائماً فى غزواته ، وأمر بأن يذرّ عليه تراب كان يجمعه مما تخلف على جسمه من آثار تلك الغزوات العديدة ، وأوصى بأن يكتب على قبره :

آثاره تنبيـــك عن أخبـــاره حتى كأنك بالعيـــان تـــراهُ
تالله لا يأتى الزمـــان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه[1]

وقد خلفه فى الحجابة ابنه عبد الملك وتلقب بالظافر ، واتبع سنة أبيه فى التفرد بالسلطان ، وحجب الخليفة وإبعاده عن كل شيء ذى أهمية فى السياسة أو الحكم . وكذلك اتبع سنة أبيه فى الجهاد والغزو ، فرد اعتداءات ملوك الشمال ، وحافظ على هيبة الدولة وسلامة حدودها ، ثم مات فى ريعان شبابه .

وتولى بعده أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالمأمون . وكانت أمه مسيحية بنت رجل يسمى « سانشو » ولذا سماه الفقهاء « سانشول » Sanchuelo أى سانشو الصغير ؛ وذلك لأنهم كانوا يكرهونه ، كما كان يكرهه كثير من الأندلسيين بسبب استهتاره واتهامه بقتل أخيه عبد الملك . وربما كان نسبه لأم مسيحية من أسباب كراهيته .

وكان ذلك كله بمثابة البارود الذى ينتظر الشرارة لينفجر . وقد انطلقت الشرارة ، وكان مطلقها (سانشو) نفسه ؛ فقد دعاه طمعه إلى الضغط على الخليفة ليكتب له بولاية العهد ، وفعلا امتثل الخليفة وكتب بالعهد له . وهنا غلى مرجل الغضب فى نفوس الأندلسيين وانتهزوا فرصة غيابه فى غزو إقليم ليون فى أول سنة ١٠٠٦ م وثاروا بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، الذى انضم إليه الساخطون على العامريين وخاصة من كانوا على ولاء لبنى أمية ؛ من يمنيين ومضريين . وهاجم الثائرون

(١) ورد هذان البيتان فى نفح الطيب ج ١ ص ١٨٦ .

قصر الخلافة ، وقتلوا الحراس ، واضطروا الخليفة إلى التنازل عن الخلافة لزعيم الثورة محمد بن هشام ، الذى ولى الخلافة ، وتلقب بالمهدى.

ولما وصلت أنباء الثورة إلى المأمون أثناء عودته من غزوته . عزم على إخمادها ، ولكن جنده البربر انفصلوا عنه ، وأخذوا يتسللون أثناء مسيره ويدخلون قرطبة ، ويبايعون الخليفة الجديد . ثم قبض على المأمون ، وقتل وصلبت جثته . وهكذا دالت دولة بنى عامر ، وانتهت فترة الحجابة .

وقد كان الطابع السياسى لتلك الفترة ، هو الطابع الاستبدادى ؛ ففيه القوة التى تحمل الضعف ، والانتصار الذى ينطوى على الهزيمة ، والصعود الذى ينذر بالهبوط . ذلك لأن القوة كانت قوة الحاكم لا قوة الشعب ، والانتصار كان انتصار الطمع لا انتصار المبدأ . كما كان الصعود صعوداً انهازيًّا ، لا تسنده دعائم من القيم تضمن له البقاء . فالمنصور قد سلك للوصول إلى تحقيق مآربه طريقاً غير نبيل . حيث قضى على الكفاءات التى رأى فيها حداً من سلطانه ، واستعان بالمرتزقة من الجنود المسيحيين والصقالبة والبربر ، وسجن وقتل . حتى لم يسلم منه صديقه وحموه ، بل لم يسلم ابنه نفسه[1] . وقد يكون كل هذا قد حقق له قوة ، وقد تكون تلك القوة قد انعكست حينا على الدولة . ولكنها فى الواقع كانت قوة شكلية ، قوة مؤقتة ، تنتهى بانتهاء صاحبها . فبعد موت المنصور ، سارت الدولة فترة وجيزة بقوة الدفع ، ثم ما لبثت أن اشتعلت فيها ثورة كانت مبدأ فتنة طاحنة ، لم تود بالدولة العامرية وحدها ، بل بالدولة الأموية ووحدة الأندلس جميعاً . وسوف نفصل القول فى تلك الفتنة فى الفصل التالى إن شاء الله .

---

(١) من ضحاياه : صديقه المصحفى الحاجب ، وحموه غالب القائد ، وابنه عبد الله ، وكان قد اشترك فى حركة ضد أبيه ولكنه وقع فى يده فقتله .

٢ – فترة تحلل اجتماعى

عادت إلى المجتمع الأندلسى فى فترة الحجابة كثير من الأمراض التى كان قد برئ منها فى سنيه السالفة ؛ فقد أدى استخدام المنصور للمرتزقة من البربر والصقالبة ومسيحيى الإسبان ؛ إلى نوع من الانفصال بين الشعب والجيش ؛ بل وإلى شىء من الكراهية يضمرها هؤلاء لهؤلاء . كذلك أدى سلوك المنصور فى الاستبداد بالأمر والاستئثار بالحكم ، إلى نوع من الانقسام فى المجتمع الأندلسى فكان من الناس من يغضى عن استبداد المنصور واستئثاره ، لأن عينيه تمتلئان بمشاهد الشجاعة ومواكب النصر ؛ ولأن بصره منجذب دائماً إلى هذا التوفيق الهائل الذى أحرزه المنصور فى إخضاع الأعداء المسيحيين ، وهزيمة جيوش المعتدين ، وتأمين الأندلس من الخارج والداخل على السواء .

على أنه كان من الناس أيضاً من ينظر بعين الاستنكار إلى تصرفات المنصور ؛ لتخلصه بطريقة قاسية من كل رجال الدولة الأكفاء ، ولحجبه بصورة مؤلمة للخليفة الشرعى للأندلس ، ثم لتقريبه للمرتزقة الغرباء دون الأندلسيين الأقربين .

وليس من شك فى أن مسلك المنصور فى الوصول إلى السلطان ، ونجاحه فى السيطرة على كل شىء ، قد أدى إلى تفشى روح الطمع ، وشيوع التطلع إلى الغلبة ، وخاصة بين هؤلاء الذين كانوا يرون أن ابن أبى عامر دونهم فى المنبت والاستعداد . وغير ذلك مما يؤهل للسلطان والحكم .

هذا ، وقد أدت الانتصارات الكثيرة إلى وفرة الغنائم وكثرة الثروات ، مما ساعد على انتشار اللهو وشيوع الإقبال على الملذات .

وقد كان المنصور نفسه قدوة فى ذلك ؛ فهو على الرغم من ظهوره بمظهر المتعصب للدين ليجامل الفقهاء ويقوى مركزه بين الشعب ، كان فى حياته الخاصة متحرراً ،

يحب الشراب والرقص واللهو. وقد كانت له مجالس أنس تحكى أخبارها بعض كتب الأدب[١].

وقد كان المنصور محبًّا لتقليد الخلفاء والأمراء الأمويين ، بل ربما كان ميالا إلى منافستهم والتفوق عليهم . لهذا اهتم بالتعمير والإنشاء مثلهم ، فبنى مدينة الزاهرة[٢] وجعلها مقر حكمه وموطن رجاله وحرسه ، وذلك ليقابل بها الزهراء التى بناها الناصر ، والتى كانت مقر الخليفة الاسمىّ هشام . وأنشأ المنصور كذلك المنية العامرية[٣] ؛ وجملها بالبساتين الرائعة والقصور الفخمة ، ليباهى بها المنى التى أنشأها أمراء بنى أمية ، كمنية الرصافة التى كان قد أقامها عبد الرحمن الداخل .

وكما زاد أمراء بنى أمية وخلفاؤهم فى مسجد قرطبة الجامع ؛ زاد المنصور أيضاً فيه زيادة كبيرة ، وأدخل عليه إصلاحات قيمة ؛ ربما فاقت ما عمله بعض الأمويين أنفسهم[٤]. وله غير ذلك كثير من أعمال البناء والإنشاء فى القناطر والقصور وغيرها[٥] .

هكذا كان المجتمع فى فترة الحجابة مجتمعاً فيه استقرار وثراء وحضارة وترف من جانب ، وفيه طبقية وعنصرية وطمع وكراهية ونفاق ولهو وتحلل من جانب آخر . ولسنا نبالغ إذا قلنا إنه كان مجتمعاً يحمل فى أعماقه بركاناً يوشك أن ينفجر ، ولكنه حتى ذلك الحين كان بركاناً هامداً يوهم بهدوئه أنه جبل راس ، ويخدع بما فيه أنه منجم غنى ،

---

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ١٧ .

(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٤) انظر : المصدر السابق ص ٢٥٥ وما بعدها . والبيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٥) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٩١ . والبيان المغرب جـ ٢ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

٣ ـ فترة تقييد الثقافة

سارت الثقافة الأندلسية فى فترة الحجابة ، بقوة الدفع الذى دفعته فى الفترات السابقة ، وخاصة فى فترة الخلافة . لذلك لا نلاحظ تقدماً جدياً فى أى ميدان من ميادين المعرفة ، ولا نصادف أعلاماً بارزين فى أى فرع من فروع الثقافة ، هذا باستثناء تلك البقية الباقية من أعلام فترة الخلافة . وربما كان من عوامل استمرار الثقافة الأندلسية فى تلك الفترة على شىء من السير ، أن المنصور بن أبى عامر كان على صلة قديمة بالثقافة ، قد ارتبط بها منذ نشأته ؛ وأنه كان على صحبة قوية للعلماء ، قد أخذ نفسه بها منذ ولايته . وقد قيل : إنه كان له مجلس علمى يضم كبار علماء عصره ، وأن هذا المجلس كان يعقد اجتماعات دورية أسبوعية يحضره المنصور ، طيلة إقامته بقرطبة[١] .

هذه أولى الملاحظات على الثقافة الأندلسية فى فترة الحجابة . وهناك ملاحظتان أخريان ، لعلهما أهم ما غير ملامح الثقافة الأندلسية عما كانت عليه فى فترة الخلافة . أما أولاهما فخمول الدراسات الفلسفية . وأما الثانية فنشاط الدراسات اللغوية . وقد كان خمول الدراسات الفلسفية بسبب مقاومة المنصور لتلك الدراسات ، ترضياً للعامة وكسباً لتأييد الفقهاء . ومن أبرز أعماله فى ذلك إحراقه لكتب الفلسفة والمنطق والفلك ، التى كانت تمتلئ بها مكتبة الحكم المستنصر ، وبهذا تقيدت الحرية الفكرية ، وتهيب الناس الاتصال بالعلوم العقلية ، وكان من نتائج ذلك كما يقول بعض المؤرخين ، أن سكن أكثر من كان قد تحرك للحكمة ، وخملت نفوس من شبوا للفلسفة ، وآثر هؤلاء وأولئك التستر ، بل إن بعضهم قد هاجر إلى المشرق أيام المنصور فراراً من الأذى وطلباً للحرية[٢].

---

(١) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ٧٣ .

(٢) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٦ – ٦٩ .

وهكذا عوّق هذا الفرع من فروع الثقافة عن النمو ، بعد أن بدأ يورق وخاصة فى أيام الحكم المستنصر ، راعى حرية الفكر .

وأما نشاط الدراسات اللغوية فى فترة الحجابة ، فأهم أسبابه قدوم اللغوى المشرقى الأديب ، صاعد البغدادى[1] الذى وفد على الأندلس أيام المنصور ، فتلقاه تلقياً حسناً ، متشبهاً بالناصر فى تلقيه لأبى على القالى .

وقد جاء تنشيط صاعد للدراسات اللغوية فى الأندلس خلال الحجابة ، من جهة أن الأندلسيين كانوا يحسون بشبه مركب نقص أمام المشارقة كما عرفنا[2] ، ولهذا كانوا يميلون غالباً إلى إظهار تفوقهم على كل مشرقى وافد عليهم . وكما حاول يحيى الغزال إخمال الفنان زرياب ، وكما أراد منذر بن سعيد هزيمة أبى على القالى ، كذلك تصدى كثير من علماء فترة الحجابة لكشف صاعد البغدادى ، فكانت بينه وبينهم مناقشات لغوية كثيرة ، بلغت أحياناً درجة التحدى . بل انحدرت فى بعض الأحيان إلى هوة نصب الحبائل ؛ كل ذلك ليسقط العالم المشرقى فيسقط معه النفوذ الأدبى المشرقى الذى كان يثقل كاهل الأندلسيين فيما يبدو .

وهكذا كان لمحاورات الأندلسيين ومناظراتهم لصاعد ، أثر كبير فى تنشيط الحركة اللغوية فى فترة الحجابة ، على الرغم مما تخلل تلك المحاورات والمناظرات من كيد ونصب

---

(١) كنية هذا الرجل : أبو العلاء ، واسمه صاعد بن أبى الحسن بن عيسى ، وهو ربعى النسب ، طبرى الأصل بغدادى التربة . وقد وفد على الأندلس أيام المنصور ، سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) تقريباً وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار ، كما كان سريع الجواب حسن الشعر بارع الارتجال ، محباً للمزاح . انظر ترجمته وبعض أخباره فى : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٢ وما بعدها . وفى نفح الطيب للمقرى جـ ٢ ص ٨٦ وما بعدها . وفى : المعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٩ وما بعدها فى وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٢) انظر : صفحة ٦٢ من هذا الكتاب .

أحابيل[١] . وذلك أن الرجل كان — إلى طبيعته الفنية — على كثير من العلم والرواية والبصر بالشعر العربى ، وقد اعترف له بعض الأندلسيين بالتفوق[٢].

وقد كان كتاب « الفصوص» الذى ألفه صاعد ، ذا أثر كذلك فى تغذية الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس . وهو كتاب كان صاعد قد أملاه على الأندلسيين فى مسجد الزهراء . وأراد له أن يتفوق على أمالى القالى[٣] . وكان المنصور قد كافأه عليه مكافأة كبيرة ، قيل إنها خمسة آلاف دينار[٤]. وقد تتبع هذا الكتاب أدباء الأندلس نقدا وتجريحاً[٥]

هذا ولا تُذكر الثقافة الأندلسية فى فترة الحجابة ، دون أن ينوه بابن الفرضى وكتابه « تاريخ علماء الأندلس» ؛ فالرجل من أجل العلماء الأندلسيين ، وكتابه من أشهر ما أخرجت الأندلس من ذخائر[٦].

وقد ألف ابن الفرضى عدة كتب ضاعت فيما ضاع من تراث الأندلس مثل : « تاريخ شعراء الأندلس» وكتاب فى « المؤتلف والمختلف» . ولكن شهرة ابن الفرضى قد اقترنت بكتابه القيم الباقى « تاريخ علماء الأندلس»، الذى يعتبر أقدم معجم رجال

---

(١) انظر طرفا من ذلك فى : الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٨ ، وفى : النفح ج ٢ ص ٨٨ . وانظر بعض ما اتهم به الأندلسيون صاعداً فى : الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٧١ وفى : النفح ج ٢٧٠ ص ٢٠ — ٢١ .

(٢) اقرأ بعض شواهد ذلك فى الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٢١ — ٢٢ .

(٣) انظر : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٧ .

(٤) انظر : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٩ .

(٥) انظر : النفح ج ٢ ص ٨٧ .

(٦) واسم الرجل أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى ، وقد اشتهر بابن الفرضى . وهو من أهل قرطبة . وكان فقيهاً محدثاً خطيباً جماعاً للكتب ، حتى كانت له منها خزانة عامرة ، وقد تولى القضاء فى بلنسية حيناً ، ثم انتهت حياته أيام الفتنة بقرطبة على يد البربر . انظر ترجمته فى : جذوة المقتبس للحميدى رقم ٥٣٧ وفى : الصلة لابن بشكوال ٥٧١ . وفى الذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

أندلسى عام بين أيدينا[١] ، والذى لا يستغنى عنه باحث فى الحياة الثقافية الأندلسية ، ولا مترجم لشخصية من شخصيات العلماء الأندلسيين الأولين ، ممن عاشوا فى القرن الرابع أو قبله .

٤ — فترة جمود الأدب

سار الأدب كذلك فى فترة الحجابة بقوة الدفع الذى دفعته فى الفترات السابقة ؛ فظل على ما كان عليه من أنواع ، ولم يعرف غير الذى كان يعرف من المذاهب . بل إن بعض الظواهر الأدبية الطيبة التى بدت فى فترة الخلافة ، وكان يرجى لها النماء فيما بعد ، قد اختفت فى فترة الحجابة ، ولم تجر الأمور معها على ما كان يتوقع . كل هذا بسبب تأثر الأدب بالظروف السياسية الاستبدادية ، والأحوال الاجتماعية المنحلة ، والأوضاع الثقافية المقيدة وهذا تفصيل ذلك :

أولا — الشعر :

ظل الشعر خلال فترة الحجابة على تلك الاتجاهات التى ظهرت فى الأندلس خلال الفترات السابقة ، وكان بعضها وافداً من المشرق وبعضها الآخر نابعاً من الأندلس ، وهى الاتجاه المحافظ والاتجاه المحدث والاتجاه الشعبى والاتجاه المحافظ الجديد . ولم يضف إلى تلك الاتجاهات المعروفة أى اتجاه جديد خلال فترة الحجابة . بل إن بعض الظواهر الشعرية التى ظهرت فى الفترة السابقة ، وكانت سبب إثراء للشعر وتوسيع لميدانه ، قد اختفت فى فترة الحجابة ؛ فعاد الشعر أفقر تراثاً وأضيق ميداناً . فظاهرة

---

(١) نشره المستشرق الإسبانى « كوديرا » Codera فى مجلدين سنتى ١٨١٩ ، ١٨٩٢ وسماه بالاسم الذى ذكره ابن بشكوال صاحب الصلة ، وهو (تاريخ علماء الأندلس) ثم نشره السيد عزت العطار فى مجلدين سنة ١٩٥٤ . وسماه بالاسم الذى ذكره الحميدى فى جذوة المقتبس وهو (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس) .

تأثره بالنهضة العلمية واستخدامه للمعانى الفلسفية ، مما كان يبشر بظهور شعر فلسفى ؛ هذه الظاهرة قد اختفت فى فترة الحجابة ، وعاد الشعر إلى معانيه المألوفة وموضوعاته الغنائية المعروفة . وليس يصعب تعليل اختفاء هذه الظاهرة بعد أن عرفنا ما كان فى عهد الحجابة من محاربة للفلسفة وإحراق لكتبها ومطاردة للمشتغلين بها . فكما كانت الحرية العقلية فى فترة الخلافة سبباً فى ظهور الشعر الفكرى أو بواكير الشعر الفلسفى ، كانت الاستبدادية الفكرية فى فترة الحجابة سبباً فى اختفاء هذا اللون من ألوان الشعر .

على أنه إذا كان الشعر قد سار فى تلك الفترة على اتجاهاته المعروفة ، واستمر على أغراضه المألوفة ؛ فإن بعض الأغراض كان أوفر حظًّا وأشد نشاطاً ؛ وذلك نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية الخاصة التى تميزت بها الحياة الأندلسية فى تلك الفترة . ومن تلك الأغراض التى كانت على حظ موفور من النشاط خلال فترة الحجابة :

(أ) المجون :

فقد كثر الشعر فى الدعوة إلى الشراب ، ووصف ما يدور فى مجالس اللهو ، ثم فى الحديث عن لذائذ ومتع قد يصل إلى حد الأدب المكشوف . وقد نشط هذا الغرض الشعرى نتيجة لشيوع التحلل فى المجتمع الأندلسى وميله إلى اللهو ، وإقباله على المتع الحسية ؛ من شراب ورقص واقتناء لحسان الجوارى ، ممن كثر سبيهن ضمن ما كان ما يسبى فى الانتصارات الحربية الكثيرة .

ومن أمثلة شعر المجون فى تلك الفترة ، ما نقله ابن بسام فى هذا الخبر : كتب عبد الملك بن شهيد إلى المنصور فى يوم قُرّ فقال :

أما ترى بَرْد يومنا هذا صيرنا للكمون أفذاذا
قد فُطرتْ صحة الكبود به حتى لكادت تعود أفلاذا

فادعُ بنـا للشَّمول مصطليا نُغذّ سـيراً إليك إغذاذا
وادع المسمى به وصاحبه تدع نبيـلا وتدع أسـتاذا

قال ابن بسام : « وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالعيال، فأمر بإحضار الأصحاب ، وأحضر الوزير أبا مروان (عبد الملك بن شهيد) وأخذوا فى شأنهم ، فمر يوم من الطيب لم يُشهد ، وألوان من اللهو لم تُعهد . وطما الأمر وسما، حتى تصايح القوم وتزافنوا[1] ، ودار الدور (بالرقص) ثم انتهى إلى الوزير ابن شهيد ، وكان لا يطيق القيام لنقرس كان يلازمه ، فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عياش ؛ فارتجل الشيخ أبياتاً جعل يقود بها وينشد :

هاك شيخ قاده عـذر لكا قـام فى رقصتـه مستهلكا
لم يطـق رقصهـا مستبتّا فانثنى يرقصهـا مستمسكا
عـاقه مـن هزها معتـدلا نقرس أنحى عليـه فاتكا
طَـرِب اللهوُ وقد حـق له طربا أرقصـه حتى اشتكى
من وزير فيهمُ رقّاصـة قام من طيب ينـاغى ملكا
أنا لو كنت كما تعـرفنى قمت إجلالا على رأسى لكا
قَهقَـهَ الإبريق منى ضحكا ورأى رعشـة رجلى فبكى[2]

ومن شعر المجون كذلك ما دار بين عبد الملك بن شهيد والمنصور بشأن بعض الجوارى . وكان ابن شهيد قد تخلف عن غزوة ، فكتب إلى المنصور بعد عودته بالسبى يطلب منه أن يهديه بعض الحسان ممن سبين فى تلك الغزوة ، فكان مما قال :

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا فبنفسى أقيـاك كل الـرزايا

---

(١) تزافنوا : تراقصوا .

(٢) اقرأ هذه القصة وما اشتملت عليه من شعر فى: الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ١٦ ، ١٧.

ورسولُ الإله أسهم فى الفَـــىء لمن يحُثّ فيــه المطايا
فاجعلنّى ــ فدُيت ــ أشكر معرو فك وابعث بها عِذاب الثنايا

وكان مما رد به المنصور على هذا الطلب :

قد بعثنا بها كشمس النهــارِ فى ثلاث من المهَا أبكارِ
وامتحنّا بعُذرة الغيــد إن كنـــت تَوَخّى بوادر الأعــذار
فاتئــد واجتهــد فإنك شيخ سلخ الليل عن بياض النهار
صانك الله من كلالك فيهــا فمن العــار كَلّة المسمــار

فتلقى الشيخ الهدية ، وكتب بعد ذلك لابن أبى عامر بهذا الشعر الذى يستر مكشوفه بكثير من الحيل البلاغية :

قد فضضنا ختام ذاك السوارِ واصطبغنــا من النجيع الجارى
ونعمنــا فى ظل أنعم ليــل ولهونا بالبــدر ، ثم الدرارى
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ذى مضاء عَضْب الظبا بتّار
فاصطنعه فليس يجزيك كفراً واتخذه فحــلا على الكفار[1]

ومن الأغراض الشعرية التى نشطت كذلك فى فترة الحجابة :

(ب) المدح :

فقد كان الحاجب يحس بالحاجة إلى تثبيت سلطانه غير الشرعى ، فكان يتخذ من أفواه الشعراء أبواق دعايته . ومن هنا أحاط المنصورُ نفسه بجماعة من شعراء عهده ، وجعل لهم ديواناً خاصًّا ، يُعطى فيه كل على حسب طبقته[2] ، كما كان يصطحبهم

---

(١) اقرأ هذه الأبيات وقصتها فى : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ١٨ ، ١٩ ، وفى نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٢٧٤ . وبين المصدرين خلاف فى النص . وقد اخترنا الأحسن من كل .

(٢) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ١٠٣ ، ٢٣٩ .

معه فى الغزوات ، لتسجيل ما يحظى به من انتصارات ، ثم التغنى بذلك بين الأندلسيين[١]

ومن النماذج الشعرية التى تمثل هذا الغرض الشعرى ، قول ابن دراج القسطلّى للمنصور :

ما كفرُ نعماك من شأنى فيثنينى ... عما توالى لنصر الملك والدين
ولا ثنائى وشكرى للوفاء بما ... أوليتنى ، دون بذل النفس يكفينى
حقٌّ على النفس أن تبلى ولو فنيت ... فى شكر أيسر ما أضحيت تُولينى
ها إنها نعمة ما زال كوكبها ... إليك فى ظلمات الخطب يهدينى
تنأى بجوهر وُد غير مبتذل ... عندى . وجوهر حمد غير مكنون
وحبذا النأى عن أهلى وعن وطنى ... فى كل برّ وبحر منك يدنينى
وموقف للنوى أغليتُ متئدى ... فيه وأرخصتُ دمع الأعين العين
من كل نافرة ذلت لقود يدى ... فى ثنى ما يَدُكَ العلياء تحبونى
والخدر يخفق فى أحشاء والهة ... تردد الشجو فى أحشاء محزون
أجاهد الصبر عنها وهى غافلة ... عن لوعة فى الحشا منها تناجينى
يا هذه كيف أعطى الشوق طاعته ... وهذه طاعة المنصور تدعونى
شدى علىّ نجاد السيف أجعله ... ضجيع جنب نبا عن مضجع الهون
رضيت منها وشيك الشوق لى عوضا ... وقلت فيها للوعات الأسى بينى
فإن تشجّ تباريحُ الهوى كبدى ... فقد تعوضت قربًا منك يأسونى
وإن يمت موقف التوديع مصطبرى ... فأحرِ لى بدنو منك يحيينى
وأى ظلٍ سوى نعماك يلحفنى ... أو وِردِ ماء سوى جدواك يروينى[٢]

كذلك كان من الأغراض الشعرية التى نشطت فى فترة الحجابة :

---

(١) انظر : الإحاطة لابن الخطيب ج ٧ ص ٧١ (المختصر المطبوع فى القاهرة سنة ٣١٩

(٢) هذه الأبيات من قصيدة وردت فى يتيمة الدهر للثعالبى ج ٢ ص ١٠٤ – ٧٠٥ .

(ج) الوصف :

فقد كثرت مظاهر الترف ، وتعددت مشاهد الجمال ، وشاعت فى الحياة الأندلسية ألوان مادية استرعت انتباه الشعراء ، وأوحت إليهم بنقلها فى لوحات من القريض . وقد كانت الطبيعة من أهم ما جذب أنظار الشعراء الوصافين ، حتى لنجد شعر الطبيعة قد اتضحت معالمه واحتل مكاناً واضحاً فى الشعر الأندلسى منذ ذلك الحين ؛ فقد وصفت الرياض وأنوارها ، والحدائق وأزهارها ، بل أنطقت الأزهار فتفاضلت ، وأجرى الثناء على لسانها فمدحت . ومن أمثلة ذلك ما نرى فى أشعار أبى مروان الجزيرى ، الذى يعد من أبرع شعراء تلك الفترة[١] . والذى لا شك فيه أن وقوف الأندلسيين على شعر الصنوبرى[٢] وتأثرهم به ، كان من أسباب نضج شعر الطبيعة الأندلسى وازدهاره فى تلك الفترة . وقد دخل شعر هذا الشاعر المشرق إلى الأندلس فى أواخر فترة الخلافة مع محمد بن العباس ، وهو عالم من أهل حلب . وكان قد تلقى علمه بالمشرق ، وروى شعر الصنوبرى عنه ، ثم نقله إلى الأندلس حين وفد عليها فى أيام الحكم المستنصر[٣] .

ومعروف أن الصنوبرى اشتهر بشعره فى الطبيعة ورياضها وأزهارها ، حتى كان أجمل شعره الروضيات والنوريات[٤] . فكان لوقوف الأندلسيين على شعره ، أثر فى نضج شعرهم فى الطبيعة ، وظهور روضياتهم ونورياتهم التى أريد لها أن تنافس روضيات الصنوبرى ونورياته . والقارئ لشعر الجزيرى — خير شعراء الطبيعة فى هذه الفترة —

---

(١) اقرأ بعض أشعاره وأخباره فى : الذخيرة ق ٤ م ١ ص ١١ وما بعدها .

(٢) هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الحلبى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ . اقرأ عنه فى : شذرات الذهب لابن العماد ج ٢ ص ٣٣٥ . وفى التاريخ الكبير لابن عساكر ج ١ ص ٤٥٦ .

(٣) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ترجمة رقم ١٤٠٤ .

(٤) جمع بعض شعره فى الطبيعة ، الأستاذ محمد راغب الطباخ ، وجعله فى كتاب سماه « الروضيات » والكتاب مطبوع فى حلب سنة ١٩٣٢ .

يرى بجلاء روح الصنوبرى وطيفه ، يرفان وراء أكثر الصور ، ويحلقان مع معظم الأخيلة .
ومن ذلك قول الجزيرى على لسان بهار المنية العامرية :

حَدَقُ الحسان تُقِرُّ لى وتغارُ ... وتضل فى صفتى النهى وتحار
طلعتْ على قضبى عيون كمائمى ... مثل العيون تحفهـا الأشـفار
وأخَصُّ شىء بى إذا شبهتنى ... دُرَرٌ تنطَّقَ سلكهَا دينـار
أهدَى له قضبُ الزمرد ساقه ... وحبـاه أنفس عطـره العطار
أنا نرجس حقًّا بهرت عقولهم ... ببديع تركيبى فقيـل بهار[1]

ومن نماذج شعر الطبيعة فى فترة الحجابة ما كان يمزج فيه وصف الطبيعة بالمدح ، وكثيراً ما يكون هذا حين يحدث الوصف بحضرة الممدوح ، أو حين يكون الموصوف مما يتصل به . وكثيراً ما كان الحاجب يحث على هذا الوصف فى مجلس من مجالسه أو روضة من رياضه . ومن أمثلة هذا اللون من الوصف قول أبى المطرّف بن أبى الحباب ، وكان قد دخل على المنصور فى المنية العامرية ، فوقف على روضة فيها ثلاث سوسنات ، ثنتان منها قد فتحتا ، وواحدة لم تتفتح :

لا يوم كاليوم فى أيامنا الأول ... بالعامرية ذات الماء والظُّلَل
هواؤها فى جميع الدهر معتـدل ... طيبًا وإن حل فصل غيرُ معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ساحتهـا ... بالسعد أن لاتحل الشمس فى الحمل
كأنما غرست من ساعة وبدا السوسـان من حينه فيها على عجـل
أبدت ثلاثًا من السوسان مائلة ... أعناقها من الإعياء والكسل
فبعض نوارها للبعض منفتح ... والبعض منغلق عنهن فى شُغُل

(١) انظر : الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٣٣ .

كأنهـــا راحة ضمت أناملها من بعد ما ملئت من جودك الحفل
وأختها بسطت منها أناملهـــا ترجو نداك كما عودتها فصل[١]

(د) النقد السياسى :

وقد كان ذلك نتيجة لعدم سلامة الوضع السياسى فى نظر كثير من الأندلسيين ، حيث يوجد خليفة شرعى معطل ، وإلى جانبه حاجب مستبد مسيطر ، هذا إلى جانب نفوذ أم الخليفة المسماة صبح ؛ ووصول المنصور عن طريقها إلى كثير مما أراد . ووضع كهذا من شأنه أن يثير بعض الشعراء وينطقهم بما يعبر عن سخط الساخطين وتبرم المتبرمين . ومن ذلك قول بعضهم :

أبنى أمية أين أقمار الدجى منكم وأين نجومها والكوكبُ
غابت أسود منكمُ عن غابها فلذاك حاز الملك هذا الثعلب[٢]

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم على لسان الخليفة هشام .

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعًا عليـــه
وتُملك باسمه الدنيـــا جميعًا وما من ذاك شىء فى يديه[٣]

وألذع من ذلك قول بعض الشعراء ينتقد الوضع كله فى كثير من السخرية والتجريح :

اقتربَ الوعدُ وحـــان الهلاكْ وكل ما تحـــذره قد أتاكْ
خليفـــة يلعب فى مكتب وأمـــهُ حُبـــلى وقاضٍ . . .[٤]

وآخر الأغراض الشعرية التى برزت فى فترة الحجابة :

---

(١) اقرأ هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧٢ .
(٢) ورد هذان البيتان فى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٦ .
(٣) ورد هذان البيتان فى : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٤١٨ .
(٤) قد حذفنا الكلمة الأخيرة لقبحها ويمكن فهمها من السياق . والبيتان فى النفح ج ١ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(هـ) الاستعطاف :

وقد كان نتيجة طبيعة لوجود كثير من الضحايا السياسيين فى تلك الفترة . وأروع أشعار استعطاف خلفتها فترة الحجابة ، هى أشعار الوزير المصحفى ، الذى رأى فيه المنصور عقبة فى سبيل الوصول إلى غايته ، فألقى به فى السجن بعد أن وصل عن طريقه إلى المجد . وكان الرجل شاعراً مجيداً ، فنظم كثيراً من مقطوعات الاستعطاف الرقيقة ، ولكنها لم تحرك قلب المنصور . ومن مقطوعات المصحفى الاستعطافية قوله له :

هبنى أسأت فأين الفضل والكرمُ ... إذ قادنى نحوك الإذعان والندمُ
يا خير من مُدّت الأيدى إليه أما ... ترثى لشيخ نعـاه عندك القلم
بالغتَ فى السخط فاصفح صفح مقتدر ... إن الملوك إذا ما استُرحموا رحموا(١)

ومن استعطاف المصحفى كذلك قوله :

لئن جَلَّ ذنب ولم أعتمـده ... فأنت أجل وأعـلى يدا
ألم تر عبـداً عـدا طورَه ... ومولًى عفا ورشيداً هـدى
ومُفسـد أمـر تلافيتَـه ... فعـاد فأصلح ما أفسـدا
أقِلْنِى أقالك من لم يـزل ... يقيك ويصرف عنك الردى(٢)

(و) الشعراء :

عرفت الأندلس خلال فترة الحجابة طائفة من الشعراء ، الذين كان بعضهم قد عاصر الفترة السابقة وأسهم فيها بنشاط شعرى ، والذين عمر بعضهم حتى أدرك الفترة اللاحقة وشارك فيها بنشاط شعرى أيضاً . وقد آثرنا ذكر هؤلاء الشعراء هنا ، لارتباطهم

---

(١) اقرأ هذه الأبيات فى الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٥١ وفى . نفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٧ .

أكثر بفترة الحجابة ، الأمر الذى من شأنه أن يجعلهم أكثر تأثراً بتلك الفترة وأشد انفعالا بها .

ويبدو أن شعراء فترة الحجابة كانوا كثيرين ؛ حتى لقد قيل : إن المنصور قد صحب فى إحدى غزواته أربعين شاعراً من طبقات مختلفة[١] . ومع هذا فالأسماء الباقية التى اقترنت بأشعار تتصل بتلك الفترة ، ليست من الكثرة بهذ الحد الذى ذكروا . ولعل السبب فى ذلك هو ضياع كثير من الأشعار والآثار بسبب ما أعقب تلك الفترة من اضطراب . ومهما يكن من أمر فقد بقيت أسماء نفر من شعراء فترة الحجابة ، كما بقيت بعض أشعار تتصل بتلك الفترة ، ومن هذه الأسماء : الحاجب المنصور ، والوزير المصحفى ، والأديب الجزيرى ، والشاعر ابن بدر ، والزاهد بن أبى زمنين[٢] ، والأمير الطليق[٣] . ولكن ألمع شاعرين تألقا فى فترة الحجابة هما : الرمادى والقسطلى وسنفرد كلا منهما بحديث.

---

(١) انظر : Palencia, Literatura. P. 58

وانظر أيضاً : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٦ .

(٢) اقرأ بعض أشعار المنصور فى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ١٩٠ وبعض أشعار المصحفى فى المرجع نفسه ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، وبعض أشعار الجزيرى فى الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٣١ وما بعدها .

واقرأ ترجمة ابن أبى زمنين وبعض شعره فى : جذوة المقتبس ترجمة رقم ٥٧ .

(٣) هو مروان بن الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر ، كان شاعراً رقيقاً يشبه فى بنى أمية ابن المعتز فى بنى العباس . وقيل إنه قتل أباه لأنه وجده مع جارية له ، فسجنه المنصور مدة ثم أطلقه بعد أن رأى فى منامه أن النبى يأمره بإطلاقه ، فسمى بالطليق لهذا . وقد مات سنة ٤٠٠ هـ . انظر : نفح الطيب ج ٢ ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، وجذوة المقتبس ترجمة رقم ٧٩٩ ، وبغية الملتمس ترجمة رقم ١٣٤٣ ، ويتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٤٠٢ ، والمغرب لابن سعيد ج ١ ص ١٧٦ ، والحلة السيراء لابن الأبار ص ١١٤ وما بعدها .

وانظر أيضاً البحث الذى كتبه عنه جارثيا جومث فى Cinco Poetas Musulmanes

الرمادى :

اسمه يوسف بن هارون [١] ، وكنيته أبوعمر ، أما الرمادى فلقبه . وقد ظن بعض من ترجموا له أن هذا اللقب نسبة إلى مكان بالمغرب يسمى الرمادة ، وأن منه أحد أجداد الشاعر [٢] . غير أن هذا اللقب ليس — كما ظنوا — نسبة إلى الرمادة ، وإنما هو الصورة العربية للقب « رومانثى » كان يطلق على الشاعر كأثر من آثار امتزاج العربية بالرومانثية فى المجتمع الأندلسى .

ومما يؤكد هذا أن بعض المصادر الأندلسية القديمة قد حفظت لنا هذا اللقب بصورته الرومانثية ، ونبهت كذلك إلى نقل هذا اللقب من صورته غير العربية إلى صورته العربية ؛ فقال ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة ، فى ترجمته للشاعر يوسف بن هارون : «كان يلقب بأبى جنيش فنقل إلى الرمادى »[٣] . فكلمة جنيش هى الكلمة الرومانثية التى صارت فى الأسبانية Cenisa «ثنيسا» ومعناها رماد . فأبو جنيش هى أبو رماد أو الرمادى [٤] .

وهو من أسرة تتصل بقبيلة كندة ، ولذا يقال له : يوسف بن هارون الكندى .

---

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره وأشعاره فى : جذوة المقتبس ترجمة رقم ٨٧٨ وفى الصلة لابن بشكوال رقم ١٤٩١ . وفى بغية الملتمس للضبى رقم ١٤٥١ ، وفى المطرب لابن دحية ص ٣ ، وفى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤٢ وما بعدها . وفى مطمح الأنفس ص ٧٨ — ٨٤ — وفى يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠٠ وما بعدها ، وفى المغرب ج ١ ص ٣٩٢ ، وفى المعجب ص ١٦ ، وفى نفح الطيب ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٢) ممن ظن ذلك صاحب جذوة المقتبس ، وتابعه من نقلوا عنه .

(٣) انظر : الصلة ترجمة رقم ١٤٩١ .

(٤) انظر : Palencia Literatura. P.59

وانظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٨ .

وقد ولد فى السنوات الأولى من المائة الرابعة[١] . ونشأ بقرطبة وتثقف على علمائها ، واكتسب صناعة الأدب من شيخه أبى بكر بن هذيل[٢] كما أفاد كذلك من علم أبى على القالى ، إذ روى عنه كتابه الأمالى . ويبدو أن الرمادى قد قام بالتدريس فى قرطبة حيناً ، بعد أن بلغ من العلم درجة تسمح له بذلك ؛ فقد ذكر اسمه ضمن من قرأ عليهم بعض الدارسين فى تلك الفترة[٣] . ولكن المرجح أن الشعر اجتذبه فى عهد مبكر من حياته ، كما تدل على ذلك قصيدته فى استقبال أبى على القالى حين وفد على الأندلس[٤] .

وقد عاصر الرمادى عدداً من حكام الأندلس ، وكان له فى عهد كل منهم نشاط شعرى ؛ فقد عاصر عهد الناصر ، وكان مما أثر عنه من شعر قيل فى تلك الفترة ، قصيدته التى استقبل بها القالى ، والتى يقول فى مطلعها :

مَن حاكمٌ بينى وبين عذولى الشَّجْوُ شجوى ، والعويل عويلى[٥]

كذلك عاصر الرمادى عصر المستنصر ، وكان مما أثر عنه من شعر قيل فى تلك الفترة ، تلك القصيدة التى قالها دفاعاً عن الخمر ، حين عزم الخليفة على إراقتها وهم باجتثاث الكروم ؛ وهى القصيدة التى مطلعها :

بخطب الشاربين يضيق صدرى وتُرمضنى بليتهم لعمـــرى[٦]

---

(١) لأنه كان حين قدم القالى إلى الأندلس سنة ٣٣٠ شاباً يقول الشعر ، ويتحدث عن شعرات بيض تنزلن بمفرقه ، فإذا فرضنا أنه كان حينئذ فى حدود السابع والعشرين من عمره كان مولده نحو سنة ٣٠٣ .

(٢) انظر ترجمته ، فى : جذوة المقتبس رقم ٩٠٧ .

(٣) ممن قرأ على الرمادى ، أرقم بن عبد الرحمن ، انظر : المغرب ج ٢ ص ١٤ .

(٤) وفد القالى على الأندلس سنة ٣٣٠ .

(٥) وردت أبيات من هذه القصيدة ، فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤١٠ ، وفى يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠٠ .

(٦) وردت هذه القصيدة فى : جذوة المقتبس ص ١٤ — ١٥ .

وكان من شعر الرمادى فى عهد الحكم بعض الشعر السياسى الذى انتقد فيه الشاعر الخليفة ، ومنه قوله :

يُوَلّى وَيعزلُ مِن يومِهِ فلا ذا يَتِمُّ ولا ذا يَتِم[1]

وقد كان من نتائج هذا اللون من الشعر أن سجن الشاعر ، فألف فى سجنه مجموعة شعرية سماها «كتاب الطير» ؛ ووصف فى هذه المجموعة كل طائر معروف وذكر خواصه ، ثم ذيل كل قطعة بمدح لولى العهد هشام بن الحكم ، مستشفعاً به إلى أبيه فى إطلاق سراحه[2] .

ويبدو أن الرمادى لم يخرج من السجن إلا بعد موت المستنصر ، ثم عاصر كذلك عهد المنصور ، وكان له فى أيامه نشاط شعرى ملحوظ . ويبدو أيضاً أن بعض هذا النشاط كان سياسيًّا ؛ فقد اتهم الشاعر بهجاء المنصور ومشايعة خصومه ، فعاقبه ابن أبى عامر وأمر بتغريبه ، ثم استشفع له عنده ، فخفف الحكم إلى المقاطعة الاجتماعية ؛ فقد طلب إلى الناس ألا يكلمه أحد ولا يتصل به أحد ، فعاش فترة قاسية من حياته وكأنه ميت[3] .

والمؤكد أن تلك المقاطعة لم تستمر بقية حياة الشاعر كما ظن بعض الرواة ، والمرجح أنها لم تستمر بقية عهد المنصور ، كما ذكر ذلك البعض[4] ؛ وذلك لأن الرمادى قد عاش مدة بعد عهد المنصور ، حتى شهد الفتنة ، كما تقول أدق الروايات[5] ، وليس بمعقول

---

(١) ورد هذا البيت فى المصدر السابق ص ٣٤٩ .

(٢) انظر المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) انظر : المعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٦ .

(٤) ظن ذلك المراكشى : انظر المصدر السابق .

(٥) قال الحميدى فى جذوة المقتبس : إن الرمادى «عاش إلى أيام الفتنة» ؛ وقال ابن بشكوال فى الصلة : إنه « توفى سنة ٤٠٣ » . وقال ابن خاقان فى المطمح : «أدرك الفتنة وخاض لجتها» . انظر الجذوة ص ٣٤٩ ، والصلة ص ٦٣٨ ، والمطمح ص ٧٠ .

أن يظل الشاعر معاقباً بحكم المنصور حتى بعد موته وزوال عهده، ثم إن من الثابت أن الرمادى كان من مداح المنصور[١] ، وأن المنصور كان يقر به ويعتز به[٢]. والذى يطمأن إليه ، أن ذلك كله لم يكن فى أوائل عهد المنصور ؛ لأن تلك الفترة هى الفترة التى اتهم فيها الشاعر بهجاء الحاجب ومشايعة خصومه، والمعقول أن يكون إكثار الشاعر من مدح المنصور ، وتقريب المنصورله واعتزازه به، فى الجزء الأخير من حياة ابن أبى عامر ، بعد أن صفح عن الشاعر وأراد كسبه إلى جانبه واستغلال موهبته الشعرية فى الدعاية لعهده .

وقد كانت للرمادى رحلات خارج قرطبة ، اقترنت بنشاط شعرى . ومن هذه الرحلات رحلته إلى سرقسطة ، حيث قصد عبد الرحمن بن محمد التُّجيبى واليها[٣] ، ومدحه بقصيدة[٤] مطلعها :

قفوا تشهدوا بسّى وإنكار لائمى ... علىّ وقوفى فى الرسوم الطواسم

ومن رحلاته كذلك رحلة إلى شنترين ، حيث قصد فرحون بن عبد الله واليها[٥] ومدحه بشعر منه تلك القصيدة[٦] التى مطلعها :

---

(١) انظر : المغرب ج ١ ص ٣٩٢ .

(٢) اقرأ مثالا من هذا الاعتزاز فى : نفح الطيب ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن مطرف بن هاشم التجيبى ، كان من كبار رجال الدولة فى أيام المنصور ، وقد استعان به فى التخلص من منافسيه ، ولما رأى شر المنصور يقترب منه دبر مؤامرة مع عبد الله بن المنصور للتخلص منه ، ولكن المنصور كشف المؤامرة . ثم تحايل للقبض على التجيبى وقتله سنة ٣٨٩ . اقرأ بعض أخبار هذا الرجل فى: البيان المغرب ج ٢ ص ٤٢٢ — ٤٢٣ . وفى المغرب ج ١ ص ١٩٧ ، وفى جذوة المقتبس ص ٣٤٧ ، وفى نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ .

(٤) وردت أبيات هذه القصيدة فى : جذوة المقتبس ص ٣٤٨ ، وفيها حكاية رحلة الشاعر إلى سرقسطة .

(٥) هو محمد بن عبد الله بن عبد الواحد ، ويشتهر بفرحون ، كما يعرف كذلك بابن الوبلة ، كان والياً على شنترين أيام الحكم المستنصر ثم أيام الحاجب المنصور .
انظر بعض أخباره فى : الحلة السيراء لابن الأبار ص ١٥٥ — ١٦٥ .

(٦) وردت أبيات من هذه القصيدة فى المصدر السابق ، وفى حكاية الشاعر مع فرحون .

أيها العارض والمهدِى لمستسقيه وبلا
حين لا يهدِى إذاما استُسْقِىَ العارض طَلاّ

وامتدت حياة الرمادى كما تقدم حتى شهد طرفا من الفتنة، ثم مات فقيراً معدماً معانياً لشرور تلك السنوات المريرة سنة ٤٠٣ هـ[١] . وهكذا عاش الرمادى نحو مائة عام ؛ لأنه كان شاعراً حين قدم القالى إلى الأندلس سنة ٣٣٠ هـ ، فكأنه عاش ثلاثة وسبعين عاماً بعد مقدم القالى ، فإذا فرضنا أنه كان يوم أن قدم القالى فى حدود السابعة والعشرين ، وأنه بخاصة تحدث فى مدحة للقالى عن شعرات بيض بدأت تتسرب إلى رأسه ، إذا فرضنا له هذه السن يوم أن قدم القالى ، كان عمره يوم مات لا يقل عن مائة عام .

هذا وقد كان فى أخلاق الرمادى كثير من الجرأة، وفى سلوكه كثير من الاستهتار ، وربما كان فى عقيدته ميل إلى التشيع . ومن مظاهر جرأته ، هذا النقد السياسى الذى ورطه مع الخليفة المستنصر، ثم مع الحاجب المنصور. كذلك كان من مظاهر استهتاره ، شعره الكثير فى الخمر والدفاع عنها ، وفى الغلمان والتشبيب بهم ، ثم مجاهرته بألوان من السلوك لا يجاهر بها غير المستهترين . ومن ذلك قوله فى غلام مسيحى :

قَبَّلْتُـــه أمـــام قسيســـهِ شَرِبتُ كاســـاتٍ بتقديسه
يَقْرع قلبى عند ذكرى له مِن فرط شوقى قرع ناقوسه[٢]

وهذا من آثاره اتصاله بالمسيحيين وتردده على أديرتهم ومنادمته لقساوستهم . ومن شواهد مجاهرته كذلك بسلوك المستهترين قوله :

---

(١) انظر الجذوة ص ٣٤٩ ، والصلة ص ٦٣٨ ، والمطمح ص ٧٠ .

(٢) ورد هذان البيتان فى المطمح ص ٨٣ .

فكان فى تحليـــل أزراره أقْوَدَ لى من ألف شيطانِ
فُتِّحَت الجنـــة من جيبـــه فبتُّ فى دعوة رضـــوان[١]

ولعل من مظاهر ميل عقيدته إلى التشيع حديثه عن على والحسين فى مثل قوله :

أنا إن رمتُ سُـلوّا عنـك يا قُـرَّة عينى
كنت فى الإثم كمن شـا ركك فى قتـل الحسـين
لك صـولات عـلى قلـبى دليـلاتٌ لحَـيْنى
مثـل صـولات عـلىّ يـوم بـدر وحنـين[٢]

شعره :

وقد خلف الرمادى شعراً كثيراً من غير شك ؛ وذلك نظراً لتبكيره فى قول الشعر ، وامتداد أجله الذى كان نحو القرن ؛ ثم نظراً لما عرف من سرعته فى قول الشعر[٣] وعدم المعاناة فيه .

وقد قال الشعر فى أكثر أغراضه المعروفة ، بل طرق بعض الأغراض الجديدة كدراسة الطير ؛ التى اتجه إليها أثناء سجنه ، والتى تحدث فيها شعراً عن كل طائر معروف وذكر خواصه .

وبرغم ذلك ، لم يؤثر عن هذا الشاعر ديوان يجمع أطراف شعره ، بل لم يبق من شعره هذا الكثير إلا بعض قصائد ومقطوعات مفرقة فى كتب الأدب والتراجم والتاريخ ،

---

(١) هذان البيتان ضمن قطعة وردت فى : المطرب لابن دحية ص ٤ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى : يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٢ ص ١٩٢ .
(٣) انظر : جذوة المقتبس ص ٣٤٦ .

التى عرضت للشاعر أو بعض من اتصل بهم[١] . وكان مما ضاع من شعر الرمادى قصائده فى المنصور ، وأشعاره فى الطير . أما جل الباقى من شعره فقطع غزلية ، وخمرية ، مما يدل على أن هذين الغرضين كانا من أهم أغراض شعره .

اتجاهه :

وشعر الرمادى — حسب ما بقى من نصوصه — كان يسير أحياناً فى الاتجاه المحدث ، وأحياناً فى الاتجاه المحافظ الجديد . وأغلب الظن أن الشاعر كان يؤثر الاتجاه الأول حين يكون الموضوع أو الموقف أقرب إلى اللهو والتحرر والدعابة ، كما كان يؤثر الاتجاه الثانى حين يكون الموضوع ألصق بالجد والمحافظة والتوقر . فمثلا حين يذهب إلى سرقسطة ، لينال رفد واليها محمد بن عبد الرحمن التجيبى ، كى يستعين به على نيل حبيبته « متعة » التى كان يعانى فى عنف تجربة حبها ؛ نراه يقول فى قصيدته لعبد الرحمن :

قفوا تشهدوا بثى وإنكار لائمى ... علىّ بكائى فى الرسوم الطواسم
أيأمن أن يغدو حريقَ تنفسى ... وإلا غريقًا فى الدموع السواجم
خذوا رأيه إن كان يتبع كل من ... ينـوح عـلى ألاّفه بالملاوم
فهذا حمام الأيك يبكى هديله ... بكائىَ ، فليفرغ للوم الحمائم
وما هى إلا فُرقة تبعث الأسى ... إذا نزلت بالناس أو بالبهـائم
خلا نظرى من نومه بعد « خلوة » ... متى كان منى النومُ ضربة لازم[٢]

فهو هنا يبدأ مدحه لعبد الرحمن التجيبى بالغزل لينتقل منه إلى المدح ، وفقاً للمنهج

---

(١) انظر المصادر التى ذكرت فى هامش أول الحديث عن الرمادى .

(٢) وردت هذه الأبيات مع قصة حب الشاعر لمتعة والتجائه إلى سرقسطة فى : جذوة المقتبس ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

المحافظ الجديد ، وهو يعنى بطرافة المعنى وغرابة الصورة، والمبالغة فى هذا وتلك ، ثم هو يعنى ببعض المحسنات ، كالتجنيس بين « خلا » و « خلوة » فى البيت الأخير . كل هذا إلى رعاية الفخامة فى التعبير والجزالة فى اللفظ والجلال فى الوزن والقافية .

أما حين يذهب إلى شنترين ، ويلقى إهمالا من بعض رجال واليها فرحون بن عبد الله ، ويفرض الموقف عليه شيئاً من المرارة الدافعة إلى السخرية والدعابة، نراه يقول لفرحون :

أيها العارض والمهدى لمستسقيه وبلا
حين لا يُهدى إذا ما استُسقى العارض طلا
قائداً أفنت مغازيه العدا سبياً وقتلا
إن ضيفاً قاصداً قلتَ له : أهلا وسهلا
قد توسعتَ له فيما يسر الضيفَ خذْلا[1]
ماله فرشٌ على الأرض سوى وجه المصلّى
لم تجد عينى لنوم بمبيت السوء كحلا[2]

فهو هنا يدخل فى صميم غرضه دون تمهيد بغزل ، كما أنه يعنى ببساطة الفكرة وشيوع روح السخرية ، ويؤثر بعد ذلك كله التعبير الرشيق واللفظ البسيط والموسيقى الهادئة القريبة من لغة الحديث . وكل ذلك من سمات الشعر المحدث . وواضح جداً أن أسلوب الرمادى فى هذا النموذج يذكرنا بأبيات الغزال التى قالها فى وصف هياج البحر حين ركب هو وصديقه السفينة متجهين إلى حيث أرسلا فى سفارة[3] . وهى الأبيات التى أولها :

---

(١) الخذل : ترك النصرة .

(٢) وردت هذه الأبيات وحكاية الشاعر مع فرحون فى : الحلة السيراء ص ١٥٥ – ١٥٦ .

(٣) اقرأ قصة هذه السفارة ورحلتها وما قيل فيها من شعر فى صفحة ١٥٨ وما بعدها من هذا الكتاب .

قال لى صحبى وصـــرنا بـــين مـــوج كالجبـــال
وتولتنـــا ريـــاح من دبـــور وشـــمال

على أنه إذا كان الباقى من شعر الرمادى يدل على أن شعره كان قسمة بين هذين الاتجاهين ، فإن ما ذكره المؤرخون للموشحات يدل على أن الاتجاه الشعبى كان يجتذب شعر الرمادى أحياناً ؛ فقد ذكروا أنه كان من المشاركين فى قول الموشحات ، بل إنه كان من المطورين لها ، الذين أدخلوا على أسلوبها بعض الزيادات[1] .

مستواه :

والباقى من شعر الرمادى بعد ذلك قسمان من حيث الجودة الفنية ، فقسم قليل الجودة ، يصل أحياناً إلى السطحية والنثرية ، وقسم على جانب عظيم من الجودة ، يصل أحياناً إلى القمة من الناحية الشعرية . ويغلب على الظن أن القسم الأول من مخلفات عهود الرمادى الأولى بقول الشعر ، قبل أن تنضج شاعريته ، وأن القسم الثانى من آثار الفترات المتأخرة من حياته الفنية ، بعد أن استوت شاعريته واكتمل نضجها . ويرجح هذا الظن أن نماذجه الشعرية الملتصقة تاريخياً بعهوده الأولى تنحدر إلى النوع الأول ، أما نماذجه الصحيحة النسبة إلى العهود المتأخرة فتسمو إلى النوع الثانى . ويمكن أن نتأمل بعض قصيدته فى أبى على القالى ، التى هى من الناحية التاريخية من نتاجه فى عهوده الأولى . أو نتأمل بعض أبيات من قصيدته فى الدفاع عن الخمر حين أمر المستنصر بإراقتها وهم باجتثاث الكروم ، وهى الأخرى من نتاجه فى العهود المتقدمة من حياته الفنية ، وسوف نرى من تأمل جزء من هذه أو تلك ، أن عدم جودة بعض شعره مرتبط بتلك العهود المتقدمة ، حين كانت شاعريته لم تنضج بعد .

---

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ٢ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ .

يقول الرمادى فى مدح القالى :

مَنْ حاكمٌ بينى وبين عذولى ... الشجو شجوى والعويل عويلى
فى أى جارحة أصون معذبى ... سلمتْ من التعذيب والتنكيل
إن قلتُ فى بصرى فشَمّ مدامعى ... أو قلتُ فى كبدى فثم غليلى
وثلاثُ شيبات نزلن بمفرقى ... فعلمتُ أنّ نزولهن رحيلى
طلعتْ ثلاثٌ فى نزول ثلاثة ... واش ووجهِ مراقب وثقيل
فعذلننى عن صبوتى فلئن ذللتُ ... لقد سمعت بذلة المعذول[1]

وفى هذه الأبيات يلاحظ ضعف المستوى الفنى لأكثر من سبب ؛ ففيها عدم الترابط كما يظهر فى البيت الأول ، إذ لا ترابط بين شطريه أصلا ؛ فالشاعر يتساءل فى الشطر الأول عمن يحكم بينه وبين العذول ، ويقرر فى الشطر الثانى أن الشجو شجوه والعويل عويله ، ولا علاقة مطلقاً بين الأمرين. وكما فى البيت الثانى بالنسبة لسابقه ؛ فهو فى البيت الثانى يتساءل عن المكان الذى يصون فيه حبيبه ، بينما كان فى البيت الأول يتساءل عمن يحكم بينه وبين عذوله ، ويقرر أن الشجو شجوه والعويل عويله . وكما فى البيت الرابع مع ما قبله من أبيات ؛ فقد انتقل فيه فجأة إلى الحديث عن الشيبات التى نزلت بمفرقة ، بعد أن كان يتحدث عن أشياء لا علاقة لها بذلك أصلا .

وفى هذه الأبيات — زيادة على عدم الترابط — ركاكة فى بعض المواطن ، كما فى البيت الثانى الذى يقول فيه :

فى أى جارحة أصون معذبى ... سلمت من التعذيب والتنكيل ؟

فهو يريد أن يقول : فى أى جارحة سلمت من التعذيب والتنكيل أصون معذبى ؛ لكنه اضطر بسبب ضغط الوزن والقافية إلى طول الفصل بين الموصوف وهو « جارحة » ،

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤١٠ . وفى يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠٠ .

وبين الوصف وهو « سلمت من التعذيب والتنكيل» ، فجاء السياق مهلهلا ركيكاً .

وفى هذه الأبيات سطحية فى بعض الأجزاء ، كما فى هذا البيت السابق الذى يتساءل فيه الشاعر هذا السؤال ، مما جعل المتنبى يعلق عليه تعليقاً قاسياً مكشوفاً ، حين قال : « يصونه فى . . . »[1].

وأخيراً يلاحظ فى تلك الأبيات تعمل بعض المحسنات تعملا يحيل الصياغة الشعرية فى بعض الأحيان إلى شىء أقرب إلى العمليات الحسابية ، وذلك حيث يقول الشاعر عن الشعرات الثلاث النازلات بمفرقه ، وتسببهن لظهور بعض المتاعب :

طلعتْ ثلاثٌ فى نزول ثلاثة واش ووجهٍ مراقب وثقيل

ويقول الرمادى فى قصيدته التى يدافع بها عن الخمر ويحتج على من أمروا بإراقتها :

تحرّيتم بذاك العدل فيها بزعمكم ؟ فإن يك عن تحرى
فإنّ أبا حنيفة وهو عدل وفرّ من القضاء مسير شهر
فقيهٌ لا يدانيه فقيه إذا جاء القياس أتى بدُر
وكان من الصلاة طويل ليل يُقطعه بلا تغميض شفر
وكان له من الشُّراب جارٌ يواصل مغربا فيها بفجر [2]

إلى أن يمضى قاصًّا حكاية هذا الجار السكير الذى كان يأتى كل ليلة متغنياً بقول العرجى :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ثم قبض عليه ، فسأل عنه أبو حنيفة ، وحين علم بسجنه سعى لإطلاق سراحه .

---

(١) حذفنا اسم المرأة التى ذكرها المتنبى اعتماداً على فطنة القارئ . انظر : نفح الطيب ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) هذه الأبيات من قصيدة وردت فى : جذوة المقتبس ص ١٤ – ١٥ .

فيلاحظ فى أبيات الرمادى هنا نثرية تبعد بها عن لغة الشعر ، كما يلاحظ هذا الاستطراد الشديد ، الذى يصرف الحديث أحياناً عن الشىء الأساسى المتحدث عنه ، إلى موضوع آخر يوشك أن يقطع الصلة بالموضوع الأصلى . فالحديث أساساً عن الخمر والدفاع عنها والتشكيك فى جرم شربها وعقوبة معاقرها . ولكن الشاعر حين أراد الاحتجاج لذلك ، وبدا له أن يستشهد بحكاية أبى حنيفة مع جاره ؛ قد صرف الحديث إلى أبى حنيفة ، فأخذ يصفه فى عدله وفراره من القضاء ، وفى أنه فقيه فذ لا يدانيه فقيه ، وأنه مشهور بالقياس الذى يأتى فيه بالدرر ، وفى أنه كان طويل القيام بالليل ، وأنه كان يقضيه فى الصلاة دون أن يغمض له جفن. وكان يكفى أن يذكر الشاعر أبا حنيفة ووقوفه إلى جانب جاره ، دون الاستطراد بذكر كل تلك الصفات للفقيه الغنى عن التعريف .

ويمكن بعد ذلك أن نتأمل شعر الرمادى المرتبط تاريخيًّا بعهوده المتأخرة ، مثل قطعتيه السابقتين فى عبد الرحمن بن محمد التجيبى ، وفرحون بن عبد الله ؛ لنرى مستوى آخر من الشعر ، فيه تجنب الشاعر كل تلك العيوب التى كانت تشيع فى شعره إبان عهوده المبكرة بقول الشعر . ومن هنا يستطاع ببساطة أن ينسب جل شعره الجيد إلى فترة نضجه الفنى الذى يُرجَّح أن تكون أواخر عهد الحكَم ، وطول عهد المنصور . ويؤكد ذلك مثل هذا الشاهد من شعر الرمادى فى السجن :

أعينىَّ إن كانت لدمعك فضلة ... تُشَبِّثُ صبرى ساعة فتدفقى

ولو ساعدت قالت : أمِنْ قلة الأسى ... تبقت دموعى ، أم من البحر تستقى

* * *

وقالت تظن الدهر يجمع بيننا ؟ ... فقلت لها : من لى بظن محقق

ولكننى فيما زَجَرْتُ[1] بمقلتى ... زجرتُ اجتماع الشمل بعد التفرق

---

(١) الزجر : التكهن .

فقد كانت الأشعار فى مثل بعدنا فلما التقت بالطيف ، قلتُ سنلتقى
أباكية يومًا ، ولم يأت وقتُـــه سينفد قبل اليوم دمعُك فارفقى[1]

فى هذه الأبيات يلاحظ كثير من الترابط ، الذى يشد بعضها إلى بعض ، ويؤلف بينها فيما يقارب الوحدة العضوية . فى البيت الأول يرجو الشاعر — فى يأس — أن تمده عينه بفضل ما لديها من دمع ، لعل ذلك ينفس عن نفسه ويثبت صبره، وفى البيت الثانى يعلل الشاعر ليأسه من إمداد عينه بفضل من دمع . فيبين أن عينه لو فرض وقدمت مساعدة ما ، لكانت تلك المساعدة هى جوابها : بأن لا دموع لديها ، وذلك لأن الأسى لم يكن قليلا فيبقى بعض الدمع ، ولأن البحر لا يمد المآقى فتجد شيئاً تقدمه بعد الذى قدمت .

وفى الأبيات التالية ينتقل الشاعر إلى الحديث عن صاحبته ، وسؤالها إياه عن احتمال اجتماع الشمل بعد التفرق ، وعن إجابته لها بالأمل فى ذلك على وجه البعد، وعن تعليل ذلك بأن الأشعار كانت نافرة منه بعيدة عنه بعد الحبيبة ، ثم أنست إليه ودنت منه حين التقى الخيال بطيف تلك الحبيبة ؛ فكان هذا الالتقاء الخيالى تكهناً وتأميلا بعيداً عن اللقاء الحقيقى . ثم يحدث الشاعر صاحبته فى صراحة مريرة بأن اللقاء الواقعى على فرض حدوثه قد يطول انتظاره ويتراخى مجىء يومه ، ومن هنا ، عليها ألا تستمر فى بكائها هذا اليوم ؛ لأن دمعها قد ينفد قبل أن يجىء .

كذلك يلاحظ على تلك الأبيات — زيادة على الترابط المشبه للوحدة العضوية — صدق التجربة الباعث على حرارة العاطفة ، وترقرق التعبير المسبب لقوة التأثير ، ثم تلاؤم الموسيقى الشعرية مع الموضوع ورزانته والانفعال وضخامته .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : مطمح الأنفس ٨١ — ٨٢ .

وعلى هذا الأساس الذى حدد لتوزيع شعر الرمادى على مرحلتى حياته الفنية ، يمكن أن ينسب إلى مرحلة نضجه مثل تلك القطعة الغزلية :

على كبدى تَهمى السحاب وتذرِفُ ... وعن جزعى تبكى الحمامُ وتهتف
كأن السحاب الواكفات غواسلى ... وتلك على فقدى نوائح هُتَّف
ألا ظعنتْ ليلى وبان قطينها ... ولكننى باق فلوموا وعنفوا
وآنستُ فى وجه الصباح لبينها ... نحولا كأن الصبح مثلى مدنف[1]

فى هذه الأبيات تتجلى قدرة الشاعر فى تحقيق الوحدة ؛ حيث يقع كل بيت بل كل شطر من بيت ، فى موقعه الذى لا يمكن أن يزحزح عنه . ثم فيها كذلك تتجلى قدرة الشاعر فى الربط بين مشاعره وبين الطبيعة ، وفى استغلال بعض مظاهر تلك الطبيعة رسم صور شعرية تنمى التعبير الشعرى وتصعد به . فالسحب تهمى بالمطر لتبرد غليله ، والحمائم تبكى لتنوح على جزعه ؛ بل إنه أشبه بميت تغسله السحب الواكفة وتنوح عليه الحمائم الهاتفة . إن صاحبته قد رحلت وبَعد ركبها ، ولكنه هو باق ، ومن هنا كان طبيعيًّا أن تذهب نفسه حسرات وأن يبلغ الحال به ما بلغ ، فليلم اللائمون إذن وليعنف المعنفون ، فهم فى الحق متجنون . وماذا يضيره من هؤلاء وأولئك ؟ إن الطبيعة نفسها أحست فراق الحبيبة وتأثرت لبعدها ، فهذا هو الصبح يراه الشاعر — من خلال إحساسه الخاص وشعوره بالمأساة — ناحلا شاحب الوجه ، كأنه هو الآخر محب مدنف فارقه من يحب .

وفى هذه الأبيات بعد هذا تتضح قدرة الشاعر على رسم الصور الفنية البارعة التى يحكمها التآزر ، كما تتضح قدرته على الصياغة الشعرية الرائعة التى يشرق فيها البيان .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق ص ٨٢ .

سماته :

وأهم سمات شعر الرمادى المكتمل النضج : المبالغة فى المعنى ، والتهويل فى الصورة ، وشيوع روح السخرية والاستهتار ، فى الموضوعات غير الجادة كالخمريات والغزل الشاذ ، واتضاح حرارة العاطفة والتهالك ، فى الموضوعات الجادة كالعذريات والشكوى . ثم الاتجاه إلى خلع الحياة الإنسانية على الطبيعة الصامتة ، والميل أحياناً إلى الأسلوب القصصى ، الذى قد يشتمل على حوار . وأخيراً إيثار الوضوح فى اللغة وعدم الاحتفال كثيراً بالصياغة .

ولعل بعض ما مضى من نماذج يؤكد سمة المبالغة فى المعنى والتهويل فى التصوير عند الرمادى . ومن أبرز النماذج الدالة على تلك السمة قوله فى الغزل :

وإنى لأغضى الطرف عنك جلالة ... وخوفاً على خديك من لحظاتى
ولو أننى أهملت عينى بأن ترى ... سناك لحالت دونها عبراتى
زعمت بأنى حلت عنك ولم أكن ... أعنيك فى بثى وفى حسراتى
وهل أنا إلا طالب لمنيتى ... إذا حُلْت عمن فى يديه وفاتى[1]

فكون الشاعر يغضى عن النظر إلى محبوبه خوفاً على خديه من النظرات ، وكون الشاعر يعتبر طالباً لمنيته إذا هو تحول عن حبيبه الذى فى يديه وفاته ؛ مثل هذا كله من الأفكار المبالغة . وقول الشاعر إنه لو ترك عينيه ترى نور المحبوب لحالت دموعه دون الرؤية ، من الصور المهوّلة كذلك .

وأكثر مبالغة من ذلك وتهويلا قوله بمناسبة ارتحال أحبته :

غداً يرحلون فيا يومُ رساك كن بالظلام بطىء اللحاقِ
ويا دمعَ عينىَ سدَّ الطريق ... وأفرغ عليهم نجيع المآقى
ويا نَفَسى جئهمُ من أمام ... وقابلهمُ بنسيم احتراق

(١) وردت هذه الأبيات فى أ يتيمة الدهر جـ ٢ ص ١٠١ .

ويا همَّ نفسى بهم كن ظلاما وقيـــدهمُ عن نوى وانطـــلاق
ويا ليل مِنْ بَعْد ذا إن ظفر ت بالصبح فاقذف به فى وثاق[١]

ففكرة تسخير عناصر الطبيعة المختلفة لتعويق الأحباب عن السفر ، فكرة كلها مبالغة ، وصور الدمع وهو يسد الطريق ، ويفرغ على الأحباب غيوث العيون ؛ والزفير وهو يهب من أمام ويقابل الأحباب بفيح الحريق ؛ وهمّ النفس وهو يتحول إلى ظلام يمنع الرؤية ويسد المسالك على الراحلين ، والليل وهو يظفر بالصبح فيقبض عليه ويقذف به فى القيد ، حتى لا يتمكن هذا الصبح من القدوم ؛ كل هذه صور مهولة شديدة المبالغة .

أما شيوع روح السخرية والاستهتار فى الموضوعات غير الجادة ، فمن أبرز شواهده قول الرمادى فى الخمر مخاطباً مسيحيًّا اسمه نصير :

اشرب الكأس يا نصير وهات إن هـــذا النهار من حسنـــاتى
بأبى مُزَّةٌ ترى الشمس فيها فى صـــفاء أصـــفى من المرآة
يسرع النـــاس نحوها بازدحام كازدحام الحجيج فى عـــرفات
هاتهـــا يا نصير إنا اجتمعنـــا لقلوب فى الدين مختلفـــات
فإذا ما انقضى دنان على اللهـــــو اعتمـــدنا مواقع الصـــلوات
لو مضى الدهر دون راح وقصف لعـــددنا هذا من السيئات[٢]

فالشاعر هنا واضح السخرية بيِّن الاستهتار ببعض المقدسات ؛ حيث جعل إسراع السكارى إلى الخمر وازدحامهم حولها كازدحام الحجيج حول عرفات ، وكان من الممكن — لو أراد الشاعر — أن يشبه ازدحام السكارى بأى مشهد آخر من مشاهد الزحام ، ولكنه أراد السخرية بهذه الشعيرة المقدسة . ثم إنه سخر فى موضع آخر سخرية لا تقل عن

(١) وردت هذه الأبيات فى : جذوة المقتبس ص ١٦٥ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى : مطمح الأنفس ص ٨١ .

تلك ؛ حيث قال ؛ إن دنان الخمر إذا ما فرغت ولم يعد مجال للشرب ، توجهنا إلى أماكن الصلاة . فهو يشرب ويلهو مع أصحابه أولا ثم يصلون ثانياً ، فصلاتهم مسبوقة بالسكر واللهو الذى تفرغ منه الدنان ، وكأنهم لا يذهبون إلى الصلاة تعبداً ولا إقامة لشعيرة ، وإنما يذهبون عربدة وهزءاً ، أو فى الأقل يذهبون لأنهم لم يجدوا الأفضل فى زعمهم ، وهو الشراب واللهو . وأخيراً يسخر الشاعر سخرية ثالثة ، حيث يقرر أنه هو وأصحابه يرون أن الدهر لو مضى دون سكر وخمر ، لكان من السيئات والذنوب . وهذا عكس تام للفكرة الدينية التى ترى أن السكر والخمر من أكبر المآثم .

وأما اتضاح حرارة العاطفة فى الموضوعات الجادة ، فقد مضت بعض شواهد من شعر الرمادى فى الحب العذرى وفى الحديث عن آلام السجن .

وأما خاصة الاتجاه إلى خلع الحياة الإنسانية على الطبيعة الصامتة ، فمن شواهدها قول الرمادى فى مقدمة طبيعية لبعض قصائده :

تأمل بإثر الغيم من زهرة الثرى ... حياة عيون متن قبل التغيم
كأن الربيع الطلق أقبل مهديا ... بطلعة معشوق إلى عين مغرم
تعجبت من غوص الحيا فى حشا الثرى ... فأفشى الذى فيه ولم يتكلم
كأن الذى يسقى الثرى صرفُ قهوة ... تنم عليه بالحديث المكتم[1]

فالشاعر فى هذه الأبيات يخلع الحياة الإنسانية على الطبيعة ، فيصور الأزهار عيوناً تفتحت بالحياة بسبب المطر ، بعد أن كانت ميتة بسبب الجفاف . ويصور الربيع محبوباً طلق المحيا . قد جاء يهدى بجماله طلعة المعشوق إلى عين المغرم . ثم يصور الأرض إنساناً يشرب من المطر خمراً تتغلغل فى أعماقه فتذيع أسراره دون أن ينطق ؛ فالأرض تعبر عن سعادتها وبهجتها بالمطر فى صورة ما تزدهر به من أزهار وأنوار وأعطار ،

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : الحلة السيراء ص ١٠٩ .

وهو تعبير صامت لا حديث معه ، كتعبير الشارب المنتشى ، بنظراته ولمحاته ومظاهر بهجته المختلفة . وليس يخفى هنا تأثر الشاعر بحياته الخاصة فيما يخلع على الطبيعة من حياة الإنسان ؛ فالشاعر كان كثير تجارب الحب ، شديد التعلق بالخمر ؛ حتى لقد كانت الخمريات والغزليات من أبرز وأكثر أشعاره ؛ لهذا نراه يقيم علاقات حب فى الطبيعة ؛ ويجعل الأرض حين تشرب المطر سكيراً يحتسى الخمر ، فتبدو بهجته دون حديث .

وأما خاصة الاتجاه أحياناً إلى أسلوب القص ، فقد مضت بعض شواهدها ، كقصيدة الدفاع عن الخمر . وكأبيات آلام المحبس .

وأما خاصة الوضوح فى اللغة ، فسمة عامة ، يمكن أن تلاحظ فى كل شعر الرمادى . ولو تتبعنا كل ما ورد له من نماذج لما تخلفت تلك السمة فى نموذج واحد . فمن النادر جداً أن تحتاج كلمة استخدمها أو تعبير ألّفه ، إلى بحث عن المعنى أو استفسار عن المراد .

وأما خاصة عدم الاحتفال كثيراً بالصياغة ، فسمة تبدو فى كثير من شعر الرمادى ؛ فأكثر صياغاته بعيد عن التعمل والتصنع ، بل بعيد أحياناً عن الصقل والتجويد ، وقلما تدل صياغة شعرية من صياغاته على احتفال كبير بغير توصيل معانيه ومشاعره فى أبسط تعبير . بل إنه يصل أحياناً فى عدم الاحتفال بالصياغة إلى عدم تحقيق الأسلوب الشعرى الملائم للمضمون ، مما يدل على أن الرمادى كان غالباً يهتم بالمضمون ، أكثر من اهتمامه بالشكل . فمثلا نراه يقول فى مقدمته الرائعة لقصيدة التجيبى :

وما هى إلا فرقة تبعث الأسى إذا نزلت بالناس أو بالبهائم

فيذكر ببساطة كلمة « البهائم» على ما فيها من ثقل ظل ، لا يناسب الشفافية التى ترف على القطعة كلها .

ونراه كذلك يقول فى الحديث عن محبوبته ، من أبياته فى ذكر آلام السجن :

تُكلفنى أن أعتب الدهر إنها لجاهلة من لى بإعتـــاب محنق

فيصف صاحبته بالجهل ، على ما فى هذا الوصف من تقليل لشأن تلك المحبوبة التى ذكرها بكل حب وإجلال فى باقى القطعة .

ثم نراه يقول أيضاً فى أبياته التى يتحدث فيها عن رحيل الأحباب :

ويا نَفَسى جئهمُ من أمـــام وقـــابلهم بنســـيم احـــتراق

فهو لا يريد « النفس» فى الحقيقة ، وإنما يريد الزفرات خاصة ، لكنه ذكر كلمة « النفس» على قصورها وعدم دقتها هنا فى أداء المعنى . وهو كذلك لا يريد « النسيم» فى الواقع ، وإنما يريد الهجير أو نحوه من الهواء اللافح المحرق . ولكنه ذكر كلمة النسيم على رقتها وإيحائها بالترويح والإنعاش ، مما يناقض المراد تماماً .

وأخيراً نراه يقول من قطعة غزلية .

يا شِقة النفس واصلها بشقتهـــا فإنما أنفُسُ الأعداء تهتجر[1]

ظلمتنى ثم إنى جئت معتـــذراً يكفيك أنى مظلوم ومعتـــذر

فهو يريد أن يقول فى عجز البيت الأول : فإنما تتهاجر أنفس الأعداء . لكنه صاغ هذه الفكرة دون اهتمام بالدقة وحسن الأداء للمعنى ، فقدم وأخر لرعاية الوزن والقافية . كذلك هو يريد فى صدر البيت الثانى أن يقول : إنك ظلمتنى لكننى أنا الذى جئتك معتذراً بعد ذلك . ولكنه لم يؤد هذه الفكرة بالصياغة التى تلائمها ، وإنما بتلك الصياغة التى تقل كثيراً عن جودة ما يراد بها من معنى .

والسبب فى كل ذلك وأمثاله ؛ هو عدم احتفال الرمادى كثيراً بالصياغة ، وميله أحياناً إلى التعبير فى سرعة عما يخطر له من معان وما يتراءى له من صور وما يحس به

---

(١) الشقة من الشىء : نصفه . تهتجر : تتهاجر وتتقاطع .

من انفعال . ولعل ذلك هو ما عناه بعض من ترجموا له حين قالوا عنه ، إنه كان سريع القول[١] .

ومع ذلك فالرمادى معدود فى كبار شعراء الأندلس ، حتى لقد قال بعض شيوخ الأدب فى وقته « فتح الشعر بكندة وختم بكندة »[٢] . وهم يقصدون أن الشعر فتح بامرئ القيس الكندى ، ثم ختم بالمتنبى والرمادى الكنديين كذلك .

ولعل مما يدل على مكانة الرمادى ومنزلته وتقدير معاصريه له . ما روى من أنه نال على إحدى قصائده ثلاث مائة دينار ذهباً ، غير نفقات الطريق فى الذهاب والإياب . وهى قصيدته التى مدح بها عبد الرحمن بن محمد التجيبى صاحب سرقسطة[٣] .

القَسْطَلى :

يعرف بابن دَرّاج ، ويلقب بالقَسْطَلِّى[٤] ، ويسمى أحمد ، ويكنى

---

(١) انظر : جذوة المقتبس ص ٣٤٦ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٣٤٧ .

(٤) اقرأ ترجمته وأخباره وبعض أشعاره فى : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة ١٨٦ ، والذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٤٣ وما بعدها ، وفى الصلة لابن بشكوال ترجمة ٧٥ ، وبغية الملتمس للضبى ترجمة ٣٤٢ ، والمغرب لابن سعيد ج ٢ ص ٦٠ — ٦٢ ، ٢٩٩ ، ٣٤٥ . وفى وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٢ — ٤٣ ، والمطرب لابن دحية ص ١٥٦ والمعجب للمراكشى ص ٢٥ ، والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٧٤ ، ج ٣ ص ٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ١٢٤ . وفى : الروض المعطار لعبد المنعم الحميرى ص ١١٥ — ١١٦ ، ١٦٠ ، والإحاطة لابن الخطيب ج ٢ ص ٨١ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٢٢ — ١٢٤ ، ١٧٩ — ٢٠٠ ، ٢١٢ — ٢١٥ ، ٢٢٢ — ٢٢٥ . وفى جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٦ — ٤٦٧ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٣ ص ٢٧٢ — ٢٧٣ ، ونفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ١٤٢ — ١٤٣ ، ويتيمة الدهر للثعالبى ج ٤ ص ١١٤ — ١١٦ .

أبا عمر[١] . أما لقبه القسطلى فنسبة إلى بلدة قسطلة Cacella فى غرب الأندلس[٢]. وقد ولدابن دراج سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) فى بيت ذى مكانة من بيوت قسطلة ؛ فقد نسبت البلد إلى الجد الأعلى للأسرة، فقيل لها : « قسطلة دراج » كما كان هذا الجد وبنوه الذين ينتمى إليهم شاعرنا ، يتداولون رياسة هذه البلد[٣] .

وأسرة بن دراج ذات أصول بربرية تنتمى إلى صنهاجة[٤] ، وكانت — فيما يبدو — ضمن البربر الذين دخلوا الأندلس فى فترة الفتح ، ثم اندمجت هذه الأصول فى البيئة الأندلسية ، واتحدت مع العناصر البشرية الأخرى التى كونت المجتمع الأندلسى ، حتى أصبحت بمضى الزمن أندلسية تماماً ، لا يكاد يربطها بالبربر إلا هذا النسب المحفوظ . وهذا شأن كل العناصر البربرية التى دخلت الأندلس فى تاريخ مبكر .

ولا يعرف شىء عن نشأة ابن دراج الأولى ، إذ لم يتعرض لها من ترجموا له من الأندلسيين والمشارقة ، غير أننا نستطيع أن نستنتج من شعره ، أنه نشأ فى بلده نشأة أدبية، وتزود بثقافة لغوية وتاريخية ، وأقبل بنوع خاص على شعر الجاهليين والإسلاميين ، وفتن بنوع أخص بالاتجاه المحافظ الجديد فى الشعر ، ذلك الاتجاه الذى وصل إلى قمته فى القرن الرابع الهجرى ، حين انتهت زعامته فى المشرق إلى الشاعر الجهير أبى الطيب المتنبى ، وفى المغرب إلى الشاعر المجلجل ابن هانئ الأندلسى . ومن المؤكد أن ابن دراج قد أطال دراسة شعر هذين الشاعرين الكبيرين .

---

(١) اسمه كاملا ، أحمد بن محمد بن العاصى بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج (انظر ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١ — ٥٣ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٧٢).

(٢) هذا ما عليه أكثر الباحثين ، على أن ابن سعيد يذكر أن ابن دراج من قسطلة أخرى فى إقليم جيان بموسطة الأندلس ،وقد رجح ذلك الدكتور محمود مكى . (انظر مقدمة ديوان ابن دراج ص ٢٨ وما بعدها) .

(٣) انظر : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٦٠ .

(٤) انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

وأول ما يذكر من أخبار ابن دراج صلته بالمنصور بن أبى عامر ، وقدومه إلى قرطبة ليبدأ عهد التألق بها . فبعد أن قوى عود القسطلى ؛ وآنس من نفسه القدرة الثقافية والأدبية ، تطلع إلى العاصمة الأندلسية حيث الشهرة والمال والمناصب ، وحيث كانت الرياسة فى ذلك الحين للحاجب المنصور ، الذى يقرب الشعراء ويستخدمهم ألسنة لتأكيد سلطانه وتسجيل أمجاده . وهكذا قدم بن دراج إلى قرطبة ، ومدح المنصور بقصيدته التى يقول فى مطلعها :

أضاء لها فجرُ النُّهَى فنهاها ... عن الدنيف المضنى بحرّ هواهـا
وضللها صبح جلا ليلة الدجى ... وقد كان يهديها إلىّ دجـاها

ثم يمضى فى الغزل التمهيدى ووصف الرحلة وفراق الأهل واستقرار الآمال فى رحاب المنصور ، إلى أن يقول :

فحطتْ بمغنى الجود والمجد رحلها ... وألقت بربع المكرمات عصاها
لدى ملك إحدى لواحظ طرفه ... بعين الرضا حسبُ المنى وكفاهـا
هو الحاجب المنصور والملك الذى ... سـعى فتعـالى جـده فتناهى
سليل الملوك الصّيد من سروِ حميرٍ ... توسط فى الأحساب سمك ذراها
لُباب معـاليها وإنسـان عينها ... وبدرُ دياجيها وشمس ضحاها
معظّمها منصورها وجوادهـا ... وفارسـها يوم الوغى وفتـاها
ووارث ملك أثّلتْـه ملوكهـا ... وجامع شملى مجـدها وعـلاها
نماه لقود الخيل « تُبَّعٌ » فخرها ... وأورثه سَبْىَ الملوكِ « سَبَاها »
ذوو الملك والتيجان والغرر التى ... جدير بها التيجان أن تتباهى[1]

---

(١) تاريخ إنشاء هذه القصيدة هو سنة ٣٨٢ هـ كما أشار إلى ذلك الحميدى فى الجذوة (ص ١٠٣) وقد وردت هذه القصيدة كاملة فى ديوان ابن دراج ص ١٠ ، وما بعدها .

وقد كانت تلك القصيدة مبعث حسد للقسطلى ، ومثار تشكيك الوشاة فيه ، فقد خاف كثيرون ممن حول المنصور من شعراء وأدباء ، أن يؤثر هذا الفتى الوافد من قسطلة على مكانتهم ، واستكثروا عليه أن يشاركهم فى ديوان الشعراء . فاتهموه بالسرقة والانتحال عند المنصور . وكان من نتائج ذلك أن استحضره المنصور ليختبره – على طريقته حين يشكك فى عالم أو أديب – فاقترح عليه بعض الموضوعات وطلب إليه أن يقول فيها شعراً ، فقال ابن دراج شعراً مرتجلا فيما اقترح عليه القول فيه . وهكذا زالت تهمة السرقة والانتحال عنه ، ووصله المنصور بمائة دينار ، وأثبته فى جملة شعرائه وأجرى عليه الرزق[1] .

ولم يفت الشاعر الذكى أن يؤكد شاعريته بما هو أكثر من ذلك ليقضى قضاء تاماً على مزاعم الحاسدين ، فأعد قصيدة جديدة أنشدها للمنصور فى نفس المجلس الذى امتحن فيه ، وكأنه كان يحس أن ما سيقوله ارتجالا سيأتى دون الدرجة الفنية التى يجب أن يعرف بها كشاعر ؛ وكأنه كان يحس أيضاً أن من واجبه الرد الموضوعى المباشر على اتهام المتهمين . ولذا أنشد المنصور القصيدة المدحية الطويلة ، التى يقول فى أولها :

حسبى رضاك من الدهر الذى عتبا ... وعطف نعماك للحظ الذى انقلبا
يا مالكا أصبحتْ كفى وما ملكت ... ومهجتى وحياتى بعض ما وهبا

ثم يمضى إلى أن ينتقل إلى ذكر محنة الاتهام الباطل له بالانتحال فيقول :

ودسَّسُوا لىَ فى مثنى حبائلهم ... شنعاء بِتُّ بهـا حران مكتئبا
من بعد ما أضرم الواشون جاحمة ... كانت ضلوعى وأحشائى لها حطبا
حتى هُزِزتُ فلا زند القريض كبا ... فيما لدىَّ ولا سيف البديه نبا
وأشرقتْ شاهدات الحق تنشر لى ... نورا غدت فيه أقوال الوشاة هبا

---

(١) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ١٠٣ – ١٠٤ .

هيهات أعجزَ أهلَ الأرض أن يجدوا ... للدُّر غير عباب البحر منتسبا
وحاش للورد أن يُعزَى إلى رَمَض [١] ... وأن يكون له غير الربيع أبا

وهكذا ، إلى أن يقول فى قدم الحاسدين لكبار الشعراء ، وفى بيان تنوع قدراته الأدبية :

ولستُ أول من أعيت بدائعه ... فاستدعت القول ممن ظن أو حسبا
إن امرأ القيس فى بعض لمتهم ... وفى يديه لواء الشعر إن ركبا
والشعر قد أسر الأعشى وقيده ... دهرا ، وقد قيل : والأعشى إذا شربا
وكيف أظما وبحرى زاخر فطَنًا ... إلى خيال من الضَّحْضاح قد نضبا
فإن نأى الشك عنى ، أو فها أنذا ... مهيأ لجلىِّ الخير مرتقبا
عبدك لنعماك فى كفيه فجر هدى ... سارٍ لمدحك يجلو الشك والريبا
إن شئتَ أملى بديع الشعر أو كتبا ... أو شئت خاطب بالمنثور أو خطبا
كروضة الحزْن [٢] أهدى الوشىَ منظرُها ... والماء والزهر والأنوار والعشبا
أو سابق الخيل أعطى الحُضْر [٣] متئداً ... والشد والكرَّ والتقريب والخببا [٤]

وهكذا تأكدت منزلة الشاعر فى بلاط المنصور ، فلم يكن فى ديوان الشعراء فحسب ، بل ما لبث أن ضم إلى ديوان الإنشاء ، تمكنه من صناعة النثر إلى جانب تمكنه من صناعة الشعر . . وما زال ابن دراج يصعد حتى أصبح من كبار شعراء المنصور ، إن لم يكن أكبرهم أجمعين . وظل يعمل فى خدمته شاعراً يمدح ويسجل الانتصارات.

---

(١) الرمض : شدة وقع الشمس على الرمل .

(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض .

(٣) الحضر بضم الحاء وسكون الضاد : ارتفاع الفرس فى العدو .

(٤) قصة هذه القصيدة واردة فى : جذوة المقتبس ص ١٠٣ — ١٠٤ ، والقصيدة كلها واردة فى الديوان ص ٣٦٣ وما بعدها .

ويصور كبار الأحداث ، وناثراً يجيد ما يطلب منه تحريره فى ديوان الانشاء ؛ حتى مات المنصور . ثم استمر يعمل مع الحاجب الجديد عبد الملك المظفر ، وظل كذلك يمدحه ويسجل انتصاراته ويصور كبار الأحداث فى عهده . وحين شبت الفتنة بالأندلس بعد فترة الحجابة ، وتناوب الأمر فى قرطبة رؤساء مختلفون بربرٌ وأمويون ، اتصل ابن دراج ببعض هؤلاء الرؤساء ومدحهم[١] ، ثم اضطر إلى مغادرة قرطبة بسبب ما تعج به من قلاقل وما تنوء تحته من اضطرابات . فاتجه إلى سبتة فى العدوة الافريقية ومدح رئيسها[٢] . وكانت هذه الرحلة أولى رحلاته خارج الأندلس ، كما كانت الأخيرة ؛ فليس فى أخباره ولا فى شعره ، ما يدل على أنه قصد إقليماً خارج الأندلس غير سبته . ولم يلبث ابن دراج أن عاد إلى الأندلس ، إذ يبدو أنه لم يجد فيها مستقراً ولا فى رئيسها ملاذاً . وقصد شاعرنا بعد ذلك عدة أقاليم أندلسية ، مادحاً رؤساءها مؤملا أن يجد الاستقرار فى بعضها [٣] . ولكنه — فيما يبدو — عجز عن أن يظفر بتحقيق أمله. وأخيراً قصد إقليم سرقسطة ، حيث المنذر بن يحيى التجيبى يلى الأمر هناك ، فنعم بكثير من الاستقرار ، وظفر بعظيم من التقدير ، فى ظل هذا الحاكم ، ثم فى ظل ابنه من بعده يحيى بن منذر بن يحيى التجيبى [٤] ، مما جعله يستوطن إقليم سرقسطة ، ولا يفارقه فى تلك الفترة الأخيرة من حياته ، إلا ليقصد دانية ، حيث كان على رياستها مجاهد العامرى

---

(١) ممن اتصل بهم : ابن عبد الجبار وسليمان المستعين ، وعبد الرحمن المرتضى ، والقاسم ابن حمود . انظر : ديوان ابن دراج والذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٦ وما بعدها .

(٢) هو على بن حمود أخو القاسم بن حمود . انظر القصيدة التى مدح بها الشاعر عليا فى الديوان ص ٧٥ .

(٣) تردد القسطلى على ألمرية وعليها خيران العامرى ، وعلى بلنسية وعليها مبارك ومظفر العامريان ، وعلى شاطبة وعليها الفتح بن أفلح ، وعلى طرطوشة وعليها لبيب العامرى . انظر الديوان لترى أشعاره فى هؤلاء الموالى العامريين ص ٨٦ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٩ ، ٥٢٠ . وانظر : الصقالبة فى إسبانيا للدكتور مختار العبادى : لتعرف قصة هؤلاء الموالى العامريين وإمارتهم فى الأندلس .

(٤) انظر الديوان ص ١٢٤ وما بعدها .

المعروف بعلمه وتأدبه وإكرامه للعلماء والأدباء وتشجيعه لهم[١]. وأغلب الظن أن ابن دراج قد عاد بعد هذه الرحلة ثانية إلى سرقسطة . وأنه ظل بها بقية حياته ، حتى مات بها[٢] سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) .

هذا ، وقد كانت أخلاق ابن دراج على كثير من الاستقامة والبعد عن التحرر الذى كان يتورط فيه كثير من معاصريه . كذلك كان فى طبيعته كثير من الجد والحساسية المسببين لشىء غير قليل من الأسى . ومن أبرز طباع ابن دراج إحساسه العميق بالأسرة ، وتعلقه الشديد بزوجته وأولاده[٣] . ثم شىء أخير يلاحظ فى طبيعته ابن دراج ، وهو الشعور بالحاجة إلى الأمن ، والإحساس بضرورة الحامى ، الذى يتحقق فى ظله الاستقرار .

وهذه الملامح النفسية والأخلاقية تدرك جميعاً فى شعره ، وتبدو بوضوح لمن يعيش ولو مع بضع قصائد من هذا الشعر .

شعره :

ويعتبر ابن دراج من أغزر الشعراء الأندلسيين شعراً ، بل من أكثر شعراء العربية نتاجاً ، فقد خلف ديواناً ضخماً . أكثره من القصائد الطوال التى يغلب عليها طول النفس[٤]

---

(١) انظر فى ترجمة مجاهد : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة ٨٤٩ ، وانظر فى وفادة بعض العلماء والأدباء عليه وإكرامه لهم : الجذوة ، والذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٤ — ٥ ، ٩٧ والصلة لابن بشوال ترجمة ١٢٥ . وانظر قصيدة القسطلى فى مدح مجاهد بالديوان ص ٤٧٨ .

(٢) هذا ما عليه أكثر من ترجموا له ودرسوا حياته . ويرجح الدكتور محمود مكى أن ابن دراج مات فى دانية ، ويذكر مبررات هذا الترجيح . انظر مقدمة الديوان ض ٦٩ — ٧٠

(٣) كان عدد أفراد الأسرة التى يعولها ابن دراج أخيراً أربعة عشر فرداً ، كما يدل على ذلك قوله :

ولسبعة مع مثلهم أنا كلهم فى النائبات وليس كلهم أنا

ويبدو أنه كان له سبع بنات وأربعة أولاد : كما يدل على ذلك قوله :

بسبع كسبع سماء السموم وأربعة كربوع العفاء

وأنه بزوجته وشخص آخر لعله خادم ، ثم بالشاعر نفسه يكمل عدد الأفراد أربعة عشر .

(٤) حقق هذا الديوان وقدم له الدكتور محمود مكى ، ونشره المكتب الإسلامى بدمشق سنة ١٩٦١ .

وموضوع المدح هو الموضوع الرئيسى الغالب على قصائد ديوان ابن دراج ، حتى لا يكاد يعثر فيه على أعمال شعرية مستقلة غير المدح ، سوى بعض الآثار القليلة التى توشك أن تضيع فى زحمة المدح . ومن ذلك قصيدتان قصيرتان فى الغزل[١] ، وثالثة فى الاستهداء[٢] . بل إن موضوع المدح يغلب لدرجة أن الشاعر قد يمزجه بما قد يعرض له من وصف زهر ونحوه ؛ مما يتصل بممدوح من ممدوحيه[٣] .

ولعل غلبة المدح على هذا النحو فى شعر ابن دراج ، كان مبعثها أن هذا الشاعر تحت إلحاح ظروف معينة بدأ حياته الفنية وختمها شاعراً رسمياً ، يعمل فى خدمة الحكام والرؤساء ، من المنصور بن أبى عامر ، إلى يحيى بن المنذر التجيبى[٤] . أما هذه الظروف المعينة التى دفعت بالشاعر إلى أن يكون شاعراً رسمياً ، فبعضها يرجع إلى أحواله الخاصة ، وبعضها يرجع إلى أحوال عصره العامة . فمعروف أن أجداده كانوا سادة بلدة قسطلة وحكامها ؛ أى أنه ألف العيش الرغد والحياة الناعمة ، فلعل سلطان قومه قد زال ، ولعل رياستهم قد انتقلت إلى غيرهم ، ولكن ابن دراج ظل على تعلقه بحياة القصور والاتصال بالرؤساء . ومعروف كذلك أن ابن دراج كان ذا عيال عديدين وأسرة كثيرة التكاليف ثقيلة المسئوليات[٥] ، فلعل ذلك أيضاً كان من دوافع إكثاره من المدح ، حتى يناك ما يسد به حاجة العيال العديدين والأسرة الباهظة . وقد صرح الشاعر نفسه بما يؤكد هذا ، وذلك فى مثل قوله :

وتحت جناحىْ مقدمى وتعطّفى ثمان وعالت بالبنين إلى الشطر

---

(١) انظر : ديوان ابن دراج ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٢) انظر : ديوان ابن دراج ص ١٥٨ .

(٣) انظر : ديوان ابن دراج ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ : ٢٥٣ .

(٤) انظر ما كتب عن حياة ابن دراج فى الصفحات الأولى من ترجمته .

(٥) انظر ما كتب عن أولاده فى آخر ترجمته ص ٣١٢ هامش (٣)

فما جهدوا فُلّكا كما جهدوا يدى ولا أنقضوا ظهراً كما أنقضوا ظهرى

ولولاهمُ لم أبد صفحة معـــدم ولم أسمع الأعداء دعوة مضطر [١]

ومعروف كذلك أن ابن دراج قد صدم فى أول عهده بالانتقال إلى قرطبة ، وعانى كثيراً من الدس والتحريض والاتهام بانتحال الشعر ، حتى يحال بينه وبين النجاح الفنى الذى كان يحلم به[٢] ؛ فلعل ذلك بالإضافة إلى ما تقدم ، قد خلف فى نفسه نوعاً من القلق وعدم الاطمئنان ، مما حمله حملا على البحث عن المستقر ، والالحاح فى طلب الحامى ، واللجوء إلى ظل القوى .

تلك بعض أحوال ابن دراج الخاصة التى ربما تفسر غلبة المدح على قصائده . أما أحوال عصره العامة ، فواضح أنها كانت أحوالا قاسية ربما شجعت كثيراً على هذا السلوك . فقد أظلت أولا فترة المنصور وابنيه ، بما فيها من حكم استبدادى . برغم ما حفلت به من انتصارات وأمجاد حربية وسياسية . وهذا اللون من الحكم الاستبدادى ، يحمل حملا على تسخير الطاقات المختلفة فى خدمة النظام الحاكم[٣] ؛ فكأنه كان لا بد للقسطلى لكى يتلاءم مع فترة الحجابة ، وحتى لا ينال من الأذى ما ناله كثيرون ، أن يسخر فنه فى خدمة المنصور ومدحه ومدح ولديه . ثم أظلت بعد ذلك فترة الفتنة ، بما فيها من قلق وخوف وضياع[٤] ، مما يدفع دفعاً إلى طلب الحمى والبحث عن المستقر واللجوء إلى القادرين على الحماية المحققين للاستقرار ، من ذوى النفوذ والسلطان .

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة طويلة لابن دراج ، والبيت الأول يقع فى صفحة ١٩٠ والبيتان الثالث والرابع يقعان فى صفحة ١٩٤ من الديوان .

(٢) انظر : ما كتب عن ذلك فى الصفحات الأولى من ترجمته .

(٣) انظر ما كتب عن سياسة فترة الحجابة فى أول هذا الفصل ، ثم ما كتب عن الشعر فى الفصل نفسه .

(٤) انظر ما كتب عن هذه الفترة فى أول الفصل الأخير من هذا الكتاب .

فلعل ذلك كله كان من أسباب أمداح ابن دراج الكثيرة ؛ فالحق أن أحواله الخاصة وأحوال عصره العامة تفسر هذا بل تسوغه إلى حد كبير .

أغراضه :

إلا أنه يجب أن يلاحظ أن المدح وإن غلب على قصائد ديوان ابن دراج فإنه لم يستأثر بتلك القصائد التى قيلت أساساً فيه . فأكثر قصائد الديوان التى أخذت عنوان المدح ، أو قيلت لبعض ممدوحيه فى مناسبة ما ، لا تخلو من أغراض أخرى ، كثيراً ما زاحمت الغرض الأصلى ، بل كثيراً ما طغت عليه . وعلى هذا يكون من الظلم لابن دراج وشعره أن تحسب تلك القصائد مدحاً خالصاً ، وأن يسقط من ديوانه ما فيه من موضوعات أخرى ، ربما كانت أهم ما فيه ، برغم تخللها لقصائد أخذت عنوان المدح .

وأهم تلك الأغراض الفرعية التى يضمها الديوان ، وتتضمنها قصائد المدح : وصف مواقف الوداع وفراق الأهل ، ووصف الأسفار ومشاق الرحلة فى البر والبحر وبالنهار والليل ، ثم التعبير عن تجارب القلق والغربة والضياع ، والإحساس بقسوة الأيام على الأبناء ، وأخيراً وصف المعارك الحربية ومشاهد الجيوش والعدد البرية والبحرية .

فابن دراج كثير الحديث عن وداعه لزوجته وأولاده ، وصاف لما يكون فى مواقف الوداع من مشاهد حسية وآلام نفسية . وهو قد يفتتح بعض قصائده بذلك ، وقد يذكره فى خلال القصيدة ، ولكنه يلح عليه ويهتم به ويوفيه حقه من القول . ومن ذلك قوله فى أول قصيدة يمدح بها المنصور بن أبى عامر .

دَعِى عزماتِ المستضام تسيرُ ... فتُنْجِد فى عرض الفلا وتغورُ
لعل بما أشجاك من لوعة النوى ... يَعز ذليلٌ أو يُفك أسير
ألم تعلمى أن الثواء هو التوى[1] ... وأن بيوت العاجزين قبور

(١) التوى : الهلاك .

إلى قوله :

ولما تدانت للوداع وقد هفا ... بصبرى منها أنة وزفير
تناشدنى عهد المودة والهوى ... وفى المهد مبغوم[1] النداء صغير
عَىٍّ بمرجوع الخطاب ولحظه ... بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومُهدتْ ... له أذرع محفوفة ونحور
فكل مُفَدَّاة الترائب مرضعٌ ... وكل محيّاة المحاسن ظِير[2]
عصيتُ شفيع النفس فيه وقادنى ... رواح لتدآب السرُى وبكور
وطار جناحُ الشوق بى وهفتْ بها ... جوانحُ من ذعر الفراق تطير[3]

فالشاعر هنا يبدأ قصيدته المدحية بالحديث إلى زوجته ، مبرراً لها سفره وفراقه لها ولولده ، ويصف موقف الوداع بينه وبين الزوجة والولد ، مبيناً أن الزوجة حين اقتربت منه للوداع ، قد زفرت زفرة وأنت أنينا لعبا بصبر الشاعر ، ثم راحت تناشده وتستحلفه بعهد الود والحب أن يبقى . ولا ينسى الشاعر الطفل الرضيع الذى يمثل جزءاً من هذا المشهد الحزين ، فيذكر أن ابنه الرضيع كان ساعة هذا الوداع فى مهده ، لا يستطيع أن ينطق إلا بغاما ، فهو عاجز عن فهم ما يدور بين الأب والأم من حديث باك ، ولكنه ذو نظرات مدركة خبيرة ، تفهم حالات الأب والأم وما هما فيه من ألم وحزن . ثم يمضى الشاعر متحدثاً عن هذا الطفل ومنزلته ، حيث سكن القلوب وافترش الأذرع والنحور ، ليصل إلى القول بأنه مع ذلك قد تركه وعصى فيه شفيع الدمع . وهكذا طار بالشاعر جناح الشوق ، وهفت بزوجته جوانح من ذعر الفراق تطير . وكما هو واضح ،

---

(١) بغم فلان صاحبه : لم يفصح له عن معنى ما يحدثه ، وبغمت الظبية : صاحت بأرخم ما يكون من صوتها .

(٢) الظير : الظئر ، وهى العاطفة على ولد غيرها المرضعة له .

(٣) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن دراج ص ٢٩٧ — ٣٩٩ .

قد جمع القسطلى فى هذه الأبيات بين وصف المشهد حسياً ونفسياً . حيث الحديث من الزوج عن السفر وجدواه ، والإقناع من الزوجة بالبقاء وضرورته ، وحيث تئن الزوجة وتزفر ، ويزلزل صبر الزوج ويهفو ، وحيث الرضيع فى مهده ، يتابع ما يحدث بنظراته الواعية ، ولكنه لا يبين ، وحيث تشفع نفس الأب لهذا الوليد ، لكن العزيمة تغلب شفاعة النفس ، وينتهى الصراع بالفرقة القاسية ، التى يطير معها الزوج بجناح الشوق ، وتضطرب بسببها جوانح الزوجة ، حتى لتوشك أن تطير من الفزع .

ومن ذلك أيضاً قول القسطلى فى خلال قصيدة أخرى يمدح بها المنصور بن أبى عامر :

ولله عـــزمى يوم ودعتُ نحـــوه ... نفوسًا شـــجانى بثهـــا وشجاها
وربةَ خدر كالجمـــان دموعها ... عزيز على قلبى شطوط نواهـــا
وبنت ثمان لا يزال يروعنى ... على النأى تذكارى خفوق حشاها
وموقفها والبين قد جد جـــده ... منوطا بحبلىّ عاتقىّ [1] يداها
تشكّى جفاء الأقربين إذا النوى ... ترامت برحلى فى البلاد فتاها [2]

فالشاعر لا ينسى خلال قصيدته المدحية أن يذكر موقف الوداع بينه وبين أهله ، ويخص بالذكر زوجته التى كانت تبكى بدمع كالجمان ، وابنته ذات الثمان ، التى كانت أحشاؤها تخفق اضطراباً وحزناً لفراق الوالد . ثم يصورها وقت الوداع ، وقد تعلقت يداها بكتفيه ، وراحت تشكو إلى أبيها ما قد يصيبها بعده من جفاء الأقارب . فالمشهد كما هو واضح يمتزج فيه الوصف الحسى بالوصف النفسى ، ففيه دموع وتوسل وخفوق أحشاء وتعلق من الطفلة بأكتاف الأب ، ثم فيه شجو يحركه البث ، واستشعار للوعة الفراق وألم البعاد ، وارتياع من مشهد خفوق أحشاء الطفلة وعلو قلبها وانخفاضه من الانفعال .

---

(١) العاتق : موضع الرداء من المنكب ، أو ما بين المنكب والعنق .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : ديوان ابن دراج ص ١٣ – ١٤ .

وابن دراج كذلك وصاف للأسفار والرحلات مفصل للقول فيها حينما تكون بالبر أو بالبحر ، راسم لما يكون خلالها من مشاهد ، شارح لما يعانى فيها من أهوال . وهو كعادته يمزج بين الوصف الحسى والنفسى ، ويجمع إلى المشاهد الخارجية الانفعالات الداخلية . ومن قوله فى بعض الأسفار البرية نهاراً وليلا :

ولو شاهدَتْنى والصواخد[1] تلتظى ... علىّ ورقراق السراب يمورُ
أسلِّط حرّ الهاجرات إذا سطا ... على حُرّ وجهى والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهى بوارح[2] ... وأستوطن الرمضاء وهى تفور
وللموت فى عين الجبان تلون ... وللذعر فى شمع الجرىء صفير
لبان لها أنى من الضيم جازع ... وأنى على مَضّ الخطوب صبور
أمير على غوْل التنائف[3] ما لَهُ ... إذا ريع إلا المشرفى وزير
ولو بصرت بى والسرى جُلُّ عزمتى ... وجرسى لجِنّان[4] الفلاة شمير
وأعتسف المومأة فى غسق الدجى ... وللأسْد فى غيل الغياض زئير
وقد حوّمتْ زُهْرُ النجوم كأنها ... كواعب فى خضر الحدائق حور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها ... كئوس مَهًا[5] والى بهن مدير
وقد خيّلتْ طرق المجرة أنها ... على مفرق الليل البهيم قتير[6]
وثاقب عزمى والظلام مروع ... وقد غض أجفان النجوم فتور
لقد أيقنت أن المُنى طوع همتى ... وأنى بعطف العامرىّ جدير[7]

---

(١) الصواخد : من صخدته الشمس أى أحرقته .
(٢) البوارح : الرياح الحارة فى الصيف .
(٣) التنائف : المفاوز والصحارى ، وهى جمع تنوفة .
(٤) الجنان : جمع جن .
(٥) المها : البلور .
(٦) القتير : الشيب .
(٧) وردت هذه الأبيات فى ديوان القسطلى ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

فالشاعر هنا يتحدث عن مشاهد الطريق وأهواله التى يعانيها المسافر بالنهار ثم بالليل، فيذكر اشتداد الحر الذى يتلظى، والسراب الرقراق الذى يمور، والقيظ الذى يتسلط لهيبه على الوجه فى النهار الذى أصيله هجير ؛ ويذكر الرياح النكباء التى تستنشق ، والرمضاء الفائرة التى توطأ . وهو لا يغفل الوصف النفسى ، فيذكر مخاوف المسافر ، وإحساسه بالموت إحساساً يصوره فى عينه ألواناً مختلفة وأشكالا متعددة ، كما يجسم الرعب واستيلاءه على المسافر فى تلك الظروف ، بحيث يخدع حواسه فيسمع له صفيراً ـ حيث الظلام الكثيف يتخلله زئير الأسد ، وحيث تتراقص زهر الكواكب فى السماء ، كحسان كواعب فى حديقة خضراء ، وحيث تدور نجوم القطب ، مثل كئوس بلور يدور بها ساق ، وحيث يظهر طريق المجرة كأنه شيب أبيض على مفرق الليل الأسود ، وحيث يروع الظلام ، حين تفتر جفون النجوم فتغمض منها العيون .

ومن ذلك أيضاً قوله فى بعض الرحلات البحرية :

إليك شحنّا الفُلك تهوى كأنها ... وقد ذُعرتْ عن مغرب الشمس غربانُ
على لجج خضر إذا هبت الصَّبا ... ترامى بنا فيها ثَبِير وثهْلان[1]
موائل ترعى فى ذراهـا مواثلا ... كما عُبدت فى الجاهلية أوثان
وفى طىِّ أسمال الغريب غرائب ... سكنّ شغاف القلب شيب وولدان
يرددن فى الأحشاء حَرَّ مصائب ... تزيد ظلاما ليلها وهى نيران
إذا غِيض ماء البحر منها مددنه ... بدمـع عيون تمتريهن أشـجان
وإن سكنتْ عنا الرياح جرى بنا ... زفير إلى ذكر الأحبـة حنان
يقلن وموج البحر والهمّ والدجى ... تموج بنـا فيها عيون وآذان
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا ... سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان[2]

(١) ثبير وثهلان : جبلان .

(٢) وردت هذه الأبيات فى ديوان القسطلى ص ٨٧ — ٨٨ .

فالشاعر هنا يتحدث عن الفلك التى تهوى ساعة الغروب كأنها غربان خائفة من مقدم الليل . ويصفها وهى تسرع على جح الماء الخضر التى تقذف بما يشبه جبلى ثبير وثهلان كلما هبت الريح ، فتبدوا السفن موائل ترى فى أعلاها ركابا قد تجمدو من الخوف فصاروا كالأصنام . ثم يتحدث الشاعر عن نفسه وأهله الذين سكنوا منه شغاف القلب ، وراحوا يرددون فى أحشائه لهيب مصائب تزيد الليل ظلاماً ، برغم أن تلك المصائب نيران من المفروض أن تضئ . ثم يذكر الشاعر أن أهله يبكون ، ودموعهم غزار ، فلو أن البحر غاض ماؤه ، لمدته دموعهم بما تجرى فيه السفينة . كما يذكر أنهم يزفرون . وزفراتهم قوية ، فلو أن الريح هدأت لسيرت تلك الزفرات الشراع . وأخيراً يذكر أن أهله كانوا يقولون بين أمواج البحر والهم والظلام التى تضطرب فيها العيون والآذان : هل لنا عودة إلى الدنيا ؟ وهل لنا قبر غير البحر أو أكفان غير الماء ؟

وهكذا يصف الشاعر أهوال الرحلة البحرية ، ويصور وقع تلك الأهوال على النفس ، فيجمع إلى الأوصاف الخارجية الانفعالات الداخلية . ويمزج بين الوصف الحسى والوصف النفسى مزجاً فنياً رائعاً .

وابن دراج كذلك كثير الحديث عن أولاده ، دائم الحنين إليهم ، والاهتمام بأمرهم . وربما كان هذا اللون من الحديث أبرز موضوعات ابن دراج الشعرية التى تتخلل قصائده المدحية . فقد ذكر أبناءه ألواناً مختلفة من الذكر ، بلغت أكثر من عشرين مرة فى ديوانه[1] . وهذه ظاهرة قد لا يشاركه فيها شاعر عربى آخر . ولعل من أسباب ذلك تلك الظروف الخاصة التى أحاطت بابن دراج ، من شدة حساسيته بأولاده ، إلى قسوة الأيام عليه وعليهم ؛ فقد اضطر الرجل أول الأمر إلى مغادرة بلده قسطلة إلى العاصمة

---

(١) انظر : ديوان القسطلى ص ٩ ، ١٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٧ — ١١٨ ، ١٢٦ — ١٢٨ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٣٠٧ ، ٣٢٧ ، ٥٢٩ .

قرطبة ، وفى هذه المرة ترك أولاده إلى أن هيأ له ولهم حياة مستقرة ، غير أن الفتنة وقعت بعد فترة من الاستقرار والرفاهية ، وحملت الشاعر على الضرب فى الآفاق بحثاً لنفسه ولأولاده عن الملجأ والقوت ، فكان يرحل عنهم أحياناً ويودعهم راحلين عنه أحياناً أخرى ، وكان فى أكثر الأحيان مفتقداً لهم أو لبعضهم ، حاملا لهمهم ، محساً بقسوة الأيام عليهم . ثم إنهم بلغوا حداً من الكثرة يرهق الكاهل ؛ فقد كانوا بضعة عشر ، بين بنين وبنات [1] ، كما كانوا جميعاً معلقين فى عنق أبيهم فى تلك الظروف القاسية التى أظلت الأندلس فى تلك السنين . لهذا كله نرى ابن دراج يكاد يكون أكثر شعراء العربية ذكراً لأولاده ، وشكاية من قسوة الأيام عليهم . ومن ذلك ما سبق من حديث الوداع لزوجته وطفله الرضيع ، ومن حديث الوداع لزوجته وطفلته ذات الثمانية الأعوام . ومنه أيضاً قوله فى اغتراب أبنائه على رغم تعلقه بهم ، وتشردهم عنه على شدة حاجتهم إليه :

فى ستة ضُعفوا وضعّف عدّهم ... حملا لمبهور الفؤاد مُبَلَّدِ [2]
شد الجلاء رحالهم فتحمَّلَتْ ... أفلاذُ قلب بالهموم مبـــدد
وحدَت بهم صعقاتُ روع شرَّدت ... أوطانهم فى الأرض كل مشرد
لا ذات خدرهمُ يُرام لوجهها ... كِنٌّ ولا ذو مهدهم بممهَّد
عاذوا بلمع الآل [3] فى مدِّ الضحى ... من بعد ظل فى القصور ممـــدد
من كل عار بالتجمل مكتس ... ومُزَوَّد بالصـــبر غير مزود [4]

ومن ذلك أيضاً قوله فى قسوة غربتهم عليهم ، وشدة حنينهم إلى دراهم ، حتى إنهم

---

(١) انظر الحديث عن حياة القسطلى ص ٣٢٦ هامش ١ .

(٢) المبلد : المتلهف غير المتجلد .

(٣) الآل : السراب .

(٤) وردت هذه الأبيات فى : ديوان ابن دراج ص ٧٤ .

ليحزنون كلما تخيلوا داراً لساكنين ، ويتألمون كلما رأو حيواناً أو طائراً يستمتع بمربض أو عش ، على حين هم مشردون هائمون :

فى أهل دار كالكواكب والنَّوَى ... بعد النوى فَلَكٌ بهم دوّارُ
كانوا جمالا للزمان فأصبحوا ... وهمُ عليه بالتغرب عار
تنبو الديار بهم وتلك ديارهم ... غرض المصائب ما بها ديّارَ
قد أقفروا وطن الأنيس وأنّست ... بهمُ مفاوز بالفلا وقفار
يتأوهون إذا رمتْ أوهامُهم ... داراً لساكنها بها استقرار
ويهيجهم عينٌ لهنّ مرابض ... ويشوقهم طير لها أوكار[1]

وابن دراج كثير الحديث عن قلقه وضياعه وسوء حاله . وغنى عن البيان شرح أسباب ذلك عند هذا الشاعر ؛ فظروف الرجل الخاصة ، وظروف الأندلس العامة ، كانت من دوافع ذلك ، وخاصة إذا كانت كل تلك الظروف تحيط بشاعر شديد الحساسية كابن دراج ، الذى لم ينس أنه ذل بعد عز ، واحتاج بعد غنى ، واضطر وهو الشاعر الكبير ، وسليل السادة من حكام قسطلة إلى أن يقصد الناس ليبيع شعره بقوته وقوت أولاده[2] . ومن نماذج شعره فى ذلك قوله :

أقرُّ عيون الشامتين وليتنى ... أبرّد ما تَطوى الضلوع من الغلِّ
أمرُّ بهم ألقَى الشَّرَى وكأنما ... فؤادى من أحداقهم غرضُ النبل
إذا الأسَد الضرغام أنفذ مقتلى ... فما فزعى إلا إلى الأرقم الصّل
وإن ذاب حُرُّ الوجه من حرّ نارهم ... فما مستغاثى منه إلا إلى المُهل
ومن شيمة الماء القراح إذا صفا ... إذا اضطرمت من تحته النار أن يغلى[3]

---

(١) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن دراج ص ١٥٧ .

(٢) اقرأ ما كتب عن تفسير كثرة أمداحه فى أول هذا الفصل .

(٣) وردت هذه الأبيات فى ديوان القسطلى ص ٤٦ .

ومنه أيضاً قوله :

وكان ضياعى حسرة وتنـــدماً ... إذا لم يفد شيئًا ولم يغنى شيًا
وأصبحتُ فى دار الغنى عن ذوى الغنى ... وعُوّضتُ فاستقبلتُ أسعَدَ يوميا
سِوَى حَسَرتَىْ عرض ووجه تضعضعا ... لقارعة البـــلوى وكانا عتـــاديا
وللستر والصبرِ الجميل تأخّرا ... فأمّهما حِرصى وكانا إمامیـــا
فيا عَبرتى سُحى لعلى مبلل ... ببحريك ما أنزفت من ماء عينيا
ويا زفـــرتى هل فى وقودك جذوة ... تنير لنا صبحا ثناه الأسى مُسيا[1]

وابن دراج بعد ذلك من وصاف المعارك الحربية . ولا غرو ؛ فقد عاش فى فترة كانت المعارك من أبرز نشاط حكامها ، وكان الشاعر يعمل فى خدمة هؤلاء الحكام . فكثيراً ما خاض المنصور معارك ضد مسيحيي الشمال ، وكثيراً ما خاض غير المنصور من الرؤساء معارك أخرى ، وقد كان طبيعياً أن يحتل وصف تلك المعارك مكاناً فسيحاً فيما يقول ابن دراج للمنصور وغيره من شعر ؛ لأنه كان رابطاً حياته بهم ، جاعلا فنه فى خدمتهم وتسجيل انتصاراتهم وأمجادهم . ومن هنا كثر حديثه عن المعارك والمحاربين وعدد الحرب . ومن شعره فى بعض المعارك ، قوله لمنذر بن يحى التجيبى :

فى جَحفل كالليل جرّارٍ له ... مِن عزّ نصرك جحفل جرّارُ
أمددتَ فيـــه بالملائكة التى ... نُصرت بها أعمامك الأنصـــار
وكسوتَ فيه الشمس بُردَ عَجاجة ... للموت تحت ظلالها إســـفار
والجو يحمَى والدماء سوافك ... والأرض ريـــا والسمـــاء غبار
والمقفـــرات ســـوافق وخوانق ... والشـــاهقات أســـنة وشفار
كل رفعن صـــدورهن لغـــارة ... ما إن لها قبل الصدور مغار[2]

(١) وردت هذه الأبيات فى ديوان القسطلى ص ١٨٠ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى ديوان القسطلى ص ١٥٣ .

ولقد غلبت صور المعارك الحربية على خيال ابن دراج ، حتى استخدمها فى أبعد الموضوعات عن هذا الجو الدامى العنيف . فقد نقل صور المعارك مثلا إلى الغزل ، وإلى وصف مجالس الأنس ، وطبق كل تفاصيل المعارك على هذين الغرضين الرقيقين ، ومن ذلك قوله متغزلا :

أوْجَفْتُ[1] خيلى فى الهوى وركابى ... وقذفت نبلى فى الصبا وحرابى
وسللت فى سُبُل الغواية صارمًا ... عضباً ترقرق فيه ماء شبابى
ورفعت للشوق المبرح راية ... خفاقة بهوائج الأطراب
ولبست للسوّام لامة خانع ... مسرودة[2] بصبابة وتصاب
وبرزت للشكوى بشِكّة معلم[3] ... نَكَصَ الملام بها على الأعقاب
فاسأل كمىّ الوجد كيف أثرته ... بغُروب دمع صائب التسكاب[4]
واسأل جنود العذل كيف لقيتها ... فى جحفل البُرحاء والأوصاب
ولقد كررت على الملام بزفرة ... ذهل العتاب بها عن الإعتاب[5]

ومن أبرز الموضوعات التى يصفها ابن دراج : السفن وركوبها ،والبحار وأهوالها . وواضح أن هذه الظاهرة إقليمية محلية ترتبط أشد الارتباط بوضع الأندلس كشبه جزيرة ، تكثر الرحلة فيها من مكان إلى آخر عن طريق البحر . وقد كان ابن دراج من أكثر الشعراء الأندلسيين التفاتا إلى البحر والسفن واهتماماً بهذا وتلك ، حتى لقد تحدث عنها مرات

(١) أوجف : سير وجيفا ، والوجيف : ضرب من سير الخيل .
(٢) اللامة : الدرع ومسرودة : من السرد ، وهو نسج الدرع .
(٣) الشكة : السلاح . والمعلم : الفارس الجريء الذى يتخذ علامة تدل عليه .
(٤) غروب الدمع : جمع غرب ، وهو انهمال الدمع وتدفقه . وصائب : من الصوب وهو الإنصباب .
(٥) وردت هذه الأبيات : فى ديوان القسطلى ص ١٨١ — ١٨٢ .

عديدة خلال قصائده . وقد مضت قطعة له فى الحديث عن البحر والرحلة فيه . ومن ذلك أيضاً قوله فى السفينة :

وكم عجزتْ عنـــا ذواتُ قوائم ... فعجنـــا بعُـوج مالهن قوائمُ
جآجئ[1] غربان تطير لنا بهـــا ... على مثل أطواد الفيافى نعائم
لها من أعاصير الشمال إذا هوت ... خوّاف ومن عصف الجنوب قوادم
يُحاجَى بها : ما حاملٌ وهو راقد ... وما طائر فى جـــوّه وهو عائم
سرَتْ من عصا موسى إليه قرابة ... فطَبٌّ بفلق البحر والصخرِ عالم
وشاهدَ لقْمَ الحوت يونسَ فاقتدى ... فغادٍ وسارٍ وهو للسفْر لاقم[2]

هذا شعر ابن دراج من حيث الموضوعات ، وقد رأينا أن الموضوع الغالب فى الظاهر ، هو موضوع المدح ، ولكن خلال قصائد المدح المستبدة بالديوان ، أغراض كثيرة هامة ، أبرزها كما تقدم : وصف مواقف الوداع للزوجة والأولاد ، ووصف الأسفار براً وبحراً ، نهاراً وليلا ، وتصوير الغربة والقلق والضياع ، وخاصة غربة الأبناء وقلق الأهل وضياع الأسرة ؛ وأخيراً تسجيل المعارك الحربية ، ، ووصف البحار والسفن .

فنه وسماته :

أما شعر القسطلى من الناحية الفنية ، فأول ما يلاحظ عليه أنه يبلغ الذروة من الاتجاه المحافظ الجديد ، وتتضح فيه معالم هذا الاتجاه[3] بأكمل ما يكون الاتضاح ، وتبدو فيه ناضجة كأحسن ما يكون النضج . حتى ليمكن أن يعتبر ابن دراج قمة هذا الاتجاه فى الأندلس ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس .

---

(١) الجآجىء : جمع جؤجؤ وهو الصدر .

(٢) وردت هذه الأبيات وفى : ديوان ابن دراج ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٣) اقرأ ما كتب عن هذا الاتجاه فى صفحة ٢١٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

وبرغم أن ابن دراج كان يسير فى هذا الاتجاه الذى سار فيه كثيرون غيره من المشارقة والأندلسيين ؛ قد كانت له مميزات خاصة تجعل لشعره شخصية ذات سمات واضحة بين أشعار الآخرين من أصحاب هذا الاتجاه الأندلسيين والمشرقيين . ويمكن أن نلخص تلك السمات فى خمس ، وهى : اللون المحلى ، والشعور الأسرى ، والتحليل المعنوى ، والوصف النفسى ، والنضج الثقافى .

أما سمة اللون المَحلى ، فنعنى بها كون الشعر واضح التأثر بطابع الإقليم ومؤثراته . وشعر ابن دراج بيّن الأندلسية بشكل يدل قارئه وسامعه على أن صاحبه من أبناء الأندلس ، المتأثرين بموقعها وحياتها السياسية والاجتماعية واللغوية أوضح تأثير . ففى شعر ابن دراج ذكر لكثير من أسماء البلاد الإسبانية التى اتصل بها المسلمون خلال معاركهم مع المسيحيين .

ومن ذلك قوله :

وبسطتَ مِن « قَشْتِلَّةٍ » يدَ آمن ... لرضاك فيها بارقٌ وسوارُ[1]

وقوله :

وبيعةُ «شَنْتَقْرُوجَ» أوريتَ فوقها ... سنا لهب فيه لعميانها شرحُ[2]

وقوله :

« وقُلُنْيةٌ » أنشأت فيها عارضًا ... للحرب أبرق بالحتوف وأرعدا[3]

---

(١) المراد بقشتلة المنطقة المسماة بالإسبانية « كاستيليا Castilla » وتقع فى وسط شبه الجزيرة الإيبيرية. والاسم يرد كذلك فى المراجع العربية : قشتالة وقشتيلة ، ولكن الصورة التى جاء عليها فى بيت ابن دراج أقرب الصور إلى النطق الإسبانى . والبيت وارد فى ديوان ابن دراج ص ١٦٥ .

(٢) الشاعر يقصد « بشنت قروج » كنيسة كانت تسمى بالإسبانية « سنتا كروث Santa cruz » أى الصليب المقدس . وكانت مما خربه المنصور فى حملاته على نصارى الشمال . والبيت وارد فى ديوان القسطلى ص ٣٩١ .

(٣) قلنية : اسم مدينة فى قشتالة ، كانت من أمنع معاقل المسيحيين فى هذه المنطقة وترد فى =

وقوله :

فتَتَّ منها قواصى « بَنْبِلونَتِهِ » بالهدم والنار فتًّا فتَّ فى عضده[١]

وفى شعر ابن دراج إيراد لكثير من أسماء الملوك والأمراء الإسبان الذين كانوا على احتكاك بالدولة الإسلامية فى الأندلس ، بالحرب أو المهادنة .

ومن ذلك قوله :

«وفِرْذِلَنْدُ» رددتَ الملكَ فى يده وما رجا غيرَ ردِّ الروحِ فى جسده[٢]

وقوله :

ودنا ابنُ « رُذْمير » يزلزل خطوه أملٌ تقسَّم نفسه وحِذارُ[٣]

وقوله :

وقد تيممَ « شَنْجٌ » منك عائدة تجيره من سيوف الكرب والوجلِ[٤]

وفى شعر ابن دراج كذلك استخدام لمعانى كلمات من اللاتينية المحلية التى تسمى « رومانثى » ؛ فهو يذكر الكلمة من هذه الكلمات ، ثم يستخدم معناها اللاتينى استخدام العارف به ، ويبنى على ذلك فكرة شعرية . ومن ذلك قوله فى الحديث عن حصن « لونة » وفتح المنصور له :

ولامِثْل يوم نحو « لُونَة » سِرْتَهُ وقد قَنَّعت شمسَ النهار غياهبهْ

= المراجع العربية أيضاً باسم قلونية . ولكنها فى بيت ابن دراج أقرب إلى صورة النطق الإسبانى الذى يسمى تلك المدينة Glona . والبيت وارد فى ديوان ابن دراج ص ٤٥٥ .

(١) بنبلونة : اسم عاصمة مملكة البشكنس أو مملكة نبرة فى شمال شبه الجزيرة الإيبرية وهى بالإسبانية : « Pamplona » كما وردت فى بيت ابن دراج ص ١٤٦ .

(٢) « فرذلند » : أحد الأمراء المسيحيين. والاسم بالإسبانية قريب من هذا وهو « Fernando » والبيت وارد فى ديوان القسطلى ص ١٥٠ .

(٣) « ابن رذمير » هو ملك ليون ألفونسو الخامس . وقد نسب إلى جد أبيه ، واسم هذا الجد بالإسبانية Ramiro والبيت فى الديوان ص ١٥٥ .

(٤) « شنج » هو شانجة بن غرسية بن فرذلند ثالث قوامس قشتالة . وكان معاصراً للمنصور وابنيه واسمه بالإسبانية Sancho والبيت وارد فى ديوان القسطلى ص ٤١٤ .

إلى قوله :

فيا ليت قُوطًا حين شاد بناءه رآه وقد خرت إليك جوانبـــه

ويا ليت إذ سماه بدراً معظما رآه وفى كسف العجاج مغاربه[١]

فقد اعتمد الشاعر على أن معنى « لونه Luna » فى اللاتينية : البدر ، واستخدم هذا المعنى اللاتينى الأصل ، فى البيت الثالث ؛ حيث قال : وليت من سمى الحصن بالاسم الدال على النور ، وهو اسم « لونة» ليته قد رآه وقد كسف فى غبار المعركة .

وفى شعر ابن دراج استعمال لألفاظ أندلسية خاصة ، بعضها متسرب من هذه اللهجة اللاتينية المحلية المسماة « رومانثى » . ومن أمثلة ذلك قوله :

وانصبْ مجانيقًا مِن النِّيم التى أحجارهن من الرَّواطِم والنَّخَب[٢]

فكلمة « نيم » فى الشطر الأول : جمع نيمة ، وهى القنينة أو الزجاجة فى استعمال الأندلسيين خاصة . وكلمة الرواطم فى الشطر الثانى : جمع رطومة وتنطق أيضاً رضومة ، وهى القنينة كذلك ، وقد تسربت إلى لغة الأندلسيين من « الرومانثى »، ويقال لها فى تلك اللغة Arradoma أو Rotoma [٣]

وفى شعر ابن دراج كما مر ، تأثر واضح بالموقع الجغرافى للأندلس ، كشبه جزيرة تحيط بها المياه من أكثر الجهات ، ويُتنقل بين أطرافها بطريق البحر ، وتستخدم السفن كوسيلة ذات شأن بين وسائل المواصلات . ومن هنا كثر وصف ابن دراج

---

(١) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن دراج ص ٢٤ – ٢٦ .

(٢) ورد هذا البيت فى ديوان القسطلى ص ٣٦ .

(٣) انظر : ملحق القواميس العربية لدوزى ج ٣ ص ٧٤٣ ، ج ص ٥٣٤ وانظر دراسة حول الأصوات الأندلسية لشتايجر ص ١٦٣ ، ٣٥٤ .

للبحر والسفن والرحلة المائية ، وقد مضت نماذج من ذلك ؛ كما كثرت فى شعره الصور والتشبيهات المستمدة من البحر ، كقوله فى بعض ممدوحيه :

وكأننى بجبينـــه فى لجـــة للحرب يَخْرِق بالقنا أمواجهَا[1]

وقوله :

صَلِيتَ ونار الحرب يذكو سعيرها وخُضتَ وموج الموت تطفو غواربه[2]

وقوله :

وخضت وقد أعيت نجاةٌ غريقها وهالت بأمواج المنـــايا بحورها[3]

وقوله :

ليُزْهَ به بحر كأن مدوده نوافل مـــن معروفه وفضول[4]

وقوله :

بِسوابح فى لجِّ بحرٍ ســـوابغ فاضت على الأرض الفضاء مدودها[5]

وديوان ابن دراج يعد سجلا لأهم المعارك التى دارت بين المسلمين ومسيحيي الشمال فى عهده ، كما أنه سجل لكثير من العلاقات بين الرؤساء الأندلسيين ومجاوريهم من الملوك والأمراء المسيحيين .

وسمة المحلية تلك التى تتضح فى شعر ابن دراج ، تضيف سمة جديدة إلى السمات الخاصة التى عرفنا بعضاً منها للشعر الأندلسى منذ أول عهوده[6] . ولم يكن ابن دراج

---

(١) ورد هذا البيت فى الديوان ص ٢٨ .

(٢) ورد هذا البيت فى الديوان ص ٢٤ .

(٣) ورد هذا البيت فى الديوان ص ٢٢ .

(٤) ورد هذا البيت فى الديوان ص ٨ .

(٥) ورد هذا البيت فى الديوان ص ٦٤ .

(٦) راجع ما كتب عن تلك السمات فى هذا الكتاب أثناء الحديث عن الشعر فى فترة تأسيس الإمارة .

أول شاعر أندلسى ظهر فى شعره هذا اللون المحلى ؛ فمن الممكن تلمس طلائع هذا اللون عند شعراء أندلسيين قد سبقوه زمناً ، كالغزال وأبى القاسم لبّ وابن عبد ربه ، ولكن ابن دراج قد تفرد بين هؤلاء جميعاً باتضاح اللون المحلى فى شعره بشكل لا يحتاج إلى تلمس أو بحث ؛ فهو فى شعره لون واضح فى أكثر من جانب ، ويبرز فى أكثر من ناحية ؛ ومن هنا اعتبر سمة من سماته ، وأضيفت تلك السمة إلى سمات الشعر الأندلسى التى تفرق بينه وبين الشعر المشرقى ، منذ اتضحت فى شعر ابن دراج .

وأما سمة الشعور الأسرى ، فنعنى بها غلبة العاطفة الأسرية واتضاحها بشكل يلفت النظر . وقد كان ذلك الجانب بارزاً فى شعر ابن دراج ؛ فقارئ شعره يطالع ألواناً مختلفة من الحديث عن الزوجة والأولاد والبنات ، فى وداعهم ورحيلهم ، وحاجتهم وضياعهم ، وثقل مسئوليتهم وشدة الإحساس بمطالبهم . وقد مضت نماذج تؤكد هذه السمة من سمات شعر ابن دراج .

وأما سمة التحليل المعنوى فنقصد بها ميل الشاعر غالباً إلى تحليل المعنى ، وبسط الفكرة ، وتوسيع جوانب الصورة . وقد كان ابن دراج واضح الميل إلى التحليل المعنوى بهذا المفهوم ؛ فهو لا يجمل ولا يركز ، ولا يكتفى باللمسة السريعة واللمحة العابرة ، وإنما يفصل ، ويحلل ويبسط ويوسع ، ويستطرد ويستوعب ، على نحو ما عرف عن ابن الرومى فى هذا المذهب . ومن أمثلة ذلك قول القسطلى فى الدعوة إلى مجلس أنس :

جهز لنا فى الروض غزوة محتسبْ ... واندب إليها من يساعد وانتدب
واحمل على خيل الهوى شيم الصبا ... واعقد لجيش اللهو ألوية الطرب
واهتف بأجناد السرور وقُدْ بها ... نحو الرياض وأنت أكرم من ركب
جيشاً تكون طبوله عيدانه ... وقرونه النايات تسعدها القصب
واهزز رماحا من تباشير المُنَى ... واسلل سيوفاً من معتقة العنب

وانصب مجانيقًا من النِّيم التى أحجارهن من الرواطم والنَّخَب[1]
لمعاقل من سوسن قد شَيَّدتْ أيدى الربيع بناءها فوق القضب

فهو يحلل معنى المعركة فى مجلس الشراب ، ويفصل أجزاء هذا المعنى تفصيلا لايترك جزئية ، وينقل صورة المعركة بكل تفاصيلها وعددها إلى هذا المجلس ، بحيث لا يدع مما يكون للمعركة دون أن يجعله للمجلس الذى يلبسه صورتها ؛ فهناك التجهيز والاحتساب والندب ، وهناك الحمل على الخيل وعقد لواء الجيش والهتاف بالجنود ، وهناك الطبول والعيدان والرماح والسيوف ، وهناك بعد ذلك كله المجانق والأحجار والمعاقل .

وكثيراً ما كانت تورط هذه السمة فى الإملال أو التعسف أو الإحالة أو اهتزاز الصورة ، كما يرى فى هذا النموذج السابق ؛ فقد بلغ تحليل المعنى ، وحبك صورة المعركة على صورة مجلس الشراب حد التعسف والافتعال ، وحمل ذلك على الملل ورؤية بعض الصور مهزوزة أو شائهة . فليست تتصور الخمرة سيوفاً ، ولا الكاسات مجانيق . وإنما هى الرغبة الملحة فى التحليل والتفصيل وتتبع كل الجزئيات واستقصاء كل الجوانب ؛ قد ورطت فى الإحالة واهتزاز الصور وأساءت إلى الجمال الفنى .

على أن ابن دراج فى أكثر الأحيان موفق فى هذا التحليل مقارب للكمال فيه ، وذلك يتأتى له عادة حين يصدر عن عاطفة صادقة وتجربة حية . ومن أمثلة ذلك قوله مقارناً بين موقفه من بنيه وموقف ممدوحه من جنده :

وقد عاذ أبطالُ الجِلاد بعطفه كما عاذ أطفالُ الجَلاء بعِطْفَيَّا
وقد قصرتْ عنه رماح عداته كما قصرت عنهم رياش جناحيا
ولكن أواسى بين عار ولابس أقلصُ عن ذَيَّا لأثنى على تَيَّا[2]

(١) النيم : جمع نيمة وهى الزجاجة أو القنينة ، والرواطم : جمع رطومة ، وهى القنينة كذلك . واللفظتان من الألفاظ الأندلسية المحلية . انظر هامش ص ٣٤٥ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن دراج ص ١٧٩ .

فهذا التفصيل فى المقارنة رائع ، لأن مصدره الصدق والإحساس الدافق ، الذى يحمل على أن يصور الشاعر أبناءه فى أكثر من وضع بائس ، وأن يصور نفسه منهم فى أكثر من موقف عاجز. فهم يعوذون بعطفيه ويتعلقون به احتياجاً وحباً وطلب حماية ؛ ولكن ريش جناحيه أقصر من أن يدفئهم أو يحميهم ، وأمام الحنو العاجز والالتجاء المسكين ، لا يجد الأب بدًّا من أن يواسى بين اللابس والعارى من بنيه ، فيقصر الثوب للابس ليجد فضلة يثنيها على العارى .

وأما سمة الوصف النفسى ؛ فنعنى بها تجاوز الوصف الجانب الحسى الخارجى ، وتغلغله إلى الجانب النفسى الداخلى ، بحيث يصور الشاعر خلجات النفس وجنبات الوجدان ، ووقع الأحداث والأشياء على هذا وذاك . وقد مضت نماذج من شعر ابن دراج فى موقف الوداع ، وفى الحديث عن القلق والضياع ،وفى وصف حال الأبناء مغتربين مشردين . وكل هذه النماذج تؤكد إجادة ابن دراج لهذا الوصف النفسى . ومن أوضح شعر القسطلى تصويراً لهذه السمة ، قوله عن استشعار أبنائه للغربة :

يتأوهون إذا رمت أوهامُهم داراً لساكنها بها استقرارُ
ويهيجهم عِين لهن مرابض ويشوقهم طـير لها أوكار (١)

وأما سمة النضح الثقافى ، فنقصد بها أن ثقافة الشاعر تتسرب إلى شعره وتنضح عليه ، بحيث يشف عنها ويشير إليها ويستمد منها. وقد كان ابن دراج ذا ثقافة واسعة، وخاصة فى التاريخ والأدب .

وقد تمثل نضح الثقافة التاريخية فى شعر ابن دراج فى كثرة إيراد أسماء القبائل والأعلام والأماكن والمواقع ذات الصلة بالتاريخ ، وكثيراً ما يتلاعب ابن دراج بهذه الأسماء التاريخية فيشتق منها ، ويجانس بينها ويحتلب معانيها .

---

(١) ورد هذان البيتان فى ديوان ابن دراج ص ١٥٧ .

ومن ذلك قوله فى لقائه لبعض ممدوحيه :

وأصبتُ فى سبأ مورَّثَ ملكها ... يسبى الملوكَ ولا يَدِبُّ لها الضَّرا
فكأنما تابعتُ تُبَّعَ رافعًا ... أعلامه ملكًا يدين له الورى
والحارثَ الجَفْنِىَّ ممنوع الحمى ... بالخيل والآساد مبـذول القِرى
وحططتُ رحلى بين نادِى حاتم ... أيام يقرى موسراً أو معسرا
ولقيتُ زيد الخيل تحت عَجاجة ... تكسو غلائلها الجياد الضُّمَّرا[1]

كذلك تمثل نضح ثقافة ابن دراج الأدبية فى الإشارة أحياناً إلى أسماء أدباء ، وأقوال دارت حولهم ، وصفات خلعت عليهم ، كقوله :

إنّ امرأ القيس فى بعض لمتَّهَم ... وفى يديه لواء الشعر إن رَكبا
والشعر قد أسر الأعشى وقيـده ... دهراً ؛ وقد قيل والأعشى إذا شربا[2]

على أن أهم ما تمثل فيه النضح الثقافى لحصيلة ابن دراج الأدبية ، هو تلك المعارضات الشعرية العديدة التى خلفها ؛ فقد عارض قصائد لأبى نواس والمتنبى وصاعد البغدادى[3].

---

(١) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن دراج ص ١٢٩ .

(٢) ورد هذان البيتان فى ديوان ابن دراج ص ٣٦٦ .

(٣) عارض رائية أبى نواس التى مطلعها .

أجارة بيتنا أبوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

برائيته التى مطلعها :

دعى عزمات المستضام تسير ... فتنجد فى عرض الفلا وتغور

وعارض رائية المتنبى فى ابن العميد التى مطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا ... وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

برائيته التى مطلعها :

بشراك من طول الترحل والسرى ... صبح بروح السفر لاح فأسفرا

وعارض هائية لصاعد البغدادى بهائيته التى مطلعها :

أضاء لها فجر النهى فتهاها ... عن الدنف المضنى بحر هواها

(انظر جذوة المقتبس ص ١٠٣ وديوان ابن دراج ص ١٠) .

وقد مضى شرح الدافع الذى كان يحدو بالأندلسيين إلى عمل معارضات لشعراء مشارقة كبار ، وهذا الدافع — وهو إجمالا تأكيد الذات الأندلسية — كان وراء معارضات القسطلى ، مضافاً إليه هذا الزاد الثقافى والأدبى الضخم ، الذى يزيد الرغبة فى هذه المعارضة ويمكن منها وينجح فيها .

أما نضح الثقافة اللغوية ، فقد تمثل فى استخدام بعض أفكار نحوية ، مثل قوله فى قيمة ما قد يستهان به وفى قوته كذلك :

فقد تُخفض الأسماء وهى سواكن ويَعمل فى الفعل الصحيح ضميرُ[1]

ولكن أهم ما يتمثل فيه نضح ثقافة ابن دراج اللغوية ، هو تمكنه من اللغة ومفرداتها تمكناً ساعده كثيراً على طول النفس فى القصائد واستخدام العويص من القوافى ، وورطه أحياناً أيضاً فى استعمال الغريب من الألفاظ .

منزلته :

هذا ، وقد كان القسطلى ذا منزلة شعرية عظيمة بين الأندلسيين ؛ فقد قال عنه مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان : « وأبو عمر القسطلى سباق حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين»[2] . وقال عنه ابن بسام صاحب الذخيرة : « وكان أبو عمر القسطلى وقته لسان الجزيرة شاعراً ، وأولا حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملى لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها»[3] . وقال عنه ابن حزم القرطبى : « لو قلتُ إنه لم يكن بصقع الأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد» . وقال فيه كذلك : « لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج

---

(١) ورد هذا البيت فى ديوان ابن دراج ص ٣٠٣ .

(٢) هذا الكلام منقول عن الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٤٤ .

(٣) انظر : المصدر السابق ص ٤٣ .

لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبي»[١] . وكذلك كانت لابن دراج شهرة كبيرة فى الشرق ؛ فقد ذكره الثعالبى ونقل بعض شعره ، وقال عنه : «كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وهو من الشعراء الفحول . وكان يجيد ما ينظم ويقول»[٢].

ومن هذه الأقوال ، ومما سبق أن ذكرنا عن شعر ابن دراج فى موضوعاته وسمات فنه ، وما تدل عليه النماذج التى عرضناها هنا وهناك، يتضح أن المرحوم أحمد أمين لم يكن دقيق الحكم على ابن دراج ، حين أورد أبياتاً من قصيدته الرائية ، ثم عقب عليها بقوله : « فنرى من هذا محاكاة للمتنبى فى الوزن والقافية وتقليده فى أسلوبه ومعانيه»[٣].

فالحق أن القسطلى لم يكن يحاكى أو يقلد ، وإنما كان كغيره من شعراء الأندلس يعارض الكبار من شعراء المشرق ، بدافع الرغبة فى تأكيد الذات الأندلسية وإظهار سبق الشعراء الأندلسيين .

كذلك يتضح من كل ما سبق أن المرحوم الدكتور أحمد ضيف لم يكن صائب الحكم حين قال عن القسطلى : «لم يكن شاعراً فطرياً يقول الشعر عن شعور صحيح أو دافع نفسى ، وإنما هو مقلد بارع التقليد ، حتى فى المعانى التى لم تشعر بها نفسه ، وفى وصف الأمكنة التى لم يرها إلا فى كلام الشعراء ؛ فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية ، وآلة من آلات الكلام ليمدح من يريد»[٤] .

وأساس هذا الحكم البعيد عن الصواب ، عدم دراسة الدكتور أحمد ضيف لابن دراج دراسة كافية ، بسبب عدم ظهور ديوان الشاعر يوم كتب عنه . وأول الأخطاء

---

(١) هذا الكلام منقول عن جذوة المقتبس للحميدى ص ١٠٥ – ١٠٦ .

(٢) انظر . يتيمة الدهر جـ ٢ ص ١١٦ .

(٣) انظر . ظهر الإسلام جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٤) انظر . بلاغة العرب فى الأندلس ص ٩٧ .

فى حكم الدكتور ضيف أنه وصف ابن دراج بأنه لم يكن شاعراً فطرياً . ومن يكون شاعراً فطرياً إذا لم يكنه ابن دراج صاحب هذا الديوان الضخم ذى القصائد المطولات ، التى تتسم بالجيشان والتدفق والغزارة المنبثة عن الفطرية والموهبة ؟. وثانى الأخطاء قول الدكتور ضيف : إن ابن دراج لم يكن يقول عن شعور صحيح أو دافع نفسى . فهذا القول إن صدق على بعض شعر الرجل فى المدح ، فإنه لن يصدق على كله ، كهذا الذى قاله فيمن أحبهم وبجلهم واتصل بهم اتصالا نفسياً من ممدوحيه كالمنصور . ثم إن كلام الأستاذ ضيف لا يصدق أصلا على هذا الشعر الكثير الغزير الذى قاله الرجل فى زوجته وأبنائه ووداعهم وفرقتهم وضياعهم وغربتهم ، ولا على الشعر الكثير الغزير الذى قاله ابن دراج فى قلقه وحنينه وتأففه وسوء حظه . وثالث أخطاء المرحوم ضيف قوله : إن ابن دراج مقلد بارع . فالذى كان من ابن دراج ليس تقليداً ، وإنما معارضة ، وقد عرضنا دوافع هذه المعارضة ، من ابن دراج ومن غيره من الأندلسيين . ورابع الأخطاء عند الأستاذ ضيف ، اتخاذه ذكر ابن دراج لأمكنة لم يرها دليلا على الكذب والتقليد . فالحق أن إيراد ابن دراج لهذه الأمكنة ، كإيراد كل شعراء العربية وغير العربية لأماكن ذات دلالات خاصة وارتباط بذكريات معينة ، مما يثيره ذكر تلك الأماكن الموحية . وخامس الأخطاء فى كلام الأستاذ ضيف قوله عن ابن دراج : إنه ممن اتخذوا الشعر صناعة لفظية ، وآلة من آلات الكلام ليمدح من يريد . فالحق أن الرجل استخدم شعره فعلا فى التكسب ، ولكنه كان فى ذلك كأكابر الشعراء المشارقة والأندلسيين فى تلك العهود . التى لم يكن التكسب بالشعر فيها مما يعاب ، والتى كان الشاعر فيها أشبه برجل الدعاية فى عهودنا الحديثة . على أن الرجل لم يجعل شعره مدحاً كله كما رأينا ؛ وإنما عبر به عن تجارب نفسية قلما عبر عن مثلها شاعر فى عصره .

والذى لا شك فيه بعد ذلك كله أن ابن دراج كان من شعراء الصف الأول بين الأندلسيين ؛ بل إنه من شعراء الصف الأول بين شعراء العربية الأقدمين . وعذر

الذين لم يحسنوا الحكم على شعره أن شعره كان ضائعاً معظمه ، وأن ديوانه كان محتجباً وقت كتابة هذه الأحكام التى لا تعطى الرجل حقه ومكانته

هذا ، ولم يكن ابن دراج شاعراً فقط ، وإنما كان ناثراً أيضاً ؛ وقد عمل فى ديوان الإنشاء للمنصور بن أبى عامر . كما حفظت بعض كتب الأدب طرفاً من نثره[١].

ثانياً — النثر :

لم يؤثر عن فترة الحجابة نثر من النوع التأليفى ، الذى يضم إلى التعبير الجميل أفكاراً ومعارف ، والذى يجمع إلى إمتاع الوجدان تغذية الفكر ، والذى يحتاج عادة إلى نضج عقلى وازدهار ثقافى واستقرار نفسى . وإنما أثر عن تلك الفترة نثر من النوع الخالص ممثلا فى قطع وصفية وبعض الرسائل والوصايا .

ويبدو أن هذا النوع من النثر كان مزدهراً فى فترة الحجابة ، حيث وجد ديوان كتّاب ، يحررون الرسائل ، ويصدرون المنشورات ، ويصفون المعارك ، ويسجلون الغزوات[٢] . كذلك كانت مظاهر الحياة المترفة والحضارة المتأنقة مما دعا بعض الأدباء لتسجيل مشاهداتهم نثراً ، ولم يعد الأمر مقصوراً على تسجيل تلك المشاهدات شعراً . ومن هنا برز النثر الوصفى ، الذى لا ينقصه إلا الوزن والقافية ليكون من نوع الشعر .

وأهم ما يلاحظ على أسلوب النثر فى فترة الحجابة، ظهور أثر طريقة ابن العميد ، تلك الطريقة التى تميل غالباً إلى الإطناب ، وتعتمد كثيراً على المحسنات وخاصة السجع والجناس والمقابلة والازدواج، والتى تتجه أيضاً إلى تضمين النثر بعض الأمثال أو الإشارات

---

(١) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ١٠٣ ، والمطرب لابن دحية ص ١٥٦ . والذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٤٣ وما بعدها .

(٢) انظر جذوة المقتبس للحميدى ص ١٠٢ ، ١٠٥ .

التاريخية أو التلميحات الثقافية بعامة ، ثم تُعنى كذلك بتدعيم النثر بالشعر ، الذى يتخلله أحياناً ويأتى فى نهايته أحياناً أخرى .

وليس من شك فى أن حياة الترف ومظاهر الفخامة فى فترة الحجابة ، كانت من أسباب الاستجابة إلى هذه الطريقة فى أسلوب النثر خلال تلك الفترة . وليس من شك أيضاً فى أن آثار ابن العميد ومن نمّوا طريقته كالصاحب ابن عباد ، قد وصلت إلى الأندلس قبيل تلك الفترة ، فيما وصل من تراث المشرق خلال القرن الرابع ، وبخاصة فى فترة الخلافة . ولكن أثر هذه الطريقة قد اتضح فى فترة الحجابة بعد أن تمثل الأندلسيون تلك الطريقة .

على أن الأسلوب المعروف من قبل ، والمعتمد إلى حد كبير على الطريقة الجاحظية ، قد بقى فى فترة الحجابة إلى جانب هذا الأسلوب الجديد ، وحفظت لنا بعض المراجع نماذج من كل من الأسلوبين .

وهذه بعض الأمثلة التى توضح ما قدمنا من أحكام :

يقول أبو مروان الجزيرى [1] ، فى قطعة وصفية له على لسان بنفسج العامرية : « إذا تدافعت الخصوم — أيد الله مولانا المنصور — فى مذاهبها ، وتنافرت فى مفاخرها ، فإليه مفزعها ، وهو المقنع فى فصل القضية بينها . لاستيلائه على المفاخر بأسرها ، وعلمه بسرها وجهرها . وقد ذهب البهار والنرجس فى وصف محاسنهما ، والفخر بمشابههما كل مذهب . وما منهما إلا ذو فضيلة ، غير أن فضلى عليها أوضح من الشمس التى تعلونا ، وأعذب من الغمام الذى يسقينا . فإن كانا قد تشبها ببعض ما فى العالم من جواهر الأرض ومصابيح السماء . وهى من الموات الصامت ، فإنى أتشبه بأحسن ما زين الله به الإنسان وهو الحيوان الناطق ، مع أنى أعطر منهما عطراً وأحمد

(١) اقرأ بعض أخباره فى : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٣١ وما بعدها .

خبرا ، وأكرم إمتاعاً شاهداً وغائباً ، ويانعاً وذابلا . وكلاهما لا يمتع إلا ريثما يينع ، ثم إذا ذبل تستكره الأنوف شمه ، وتستهدف الأكف ضمه . وأنا أمتع رطباً ويبساً ، وتدخرنى الملوك فى خزانتها وسائر الأطباء ، وأصرف فى منافع سائر الأعضاء . فإن فخرا باستقلالهما على ساق هى أقوى من ساق ، فلا غرو ، إن الوشى ضعيف ، والهواء لطيف ، والمسك خفيف ، وليس المجد يدرك بالصراع .

« وقد أودعت — أيد الله مولانا — قوافى الشعر من وصف مشابهى ما أودعاه ، وحضرت بنفسى . لئلا أغيب عن حضرتهما ، فقديما فضل الحاضر وإن كان مفضولا ، ولهذا قالوا . ألذ الطعام ما حضر لوقته ، وأشعر الناس من أنت فى شعره . فلمولانا أتم الفضل ، فى أن يفصل بحكمه العدل .

« شهدتْ لنوّار البنفسج ألسنٌ من لونه الأحوى ومن إيناعهِ
لمشابه الشَّعر الأثيث أعاره الـ ـقمر المنير الطلق نور شعاعهِ
ولربما جُمد النجيع من الطُلى[1] فى صارم المنصور يوم قراعه
فحكاه غير مخالف فى لونه لا فى روائحه وطيب طباعه
ملك جهلنا قبله سبل الهدى حتى وضحن بنهجه وشراعه
فى سيفه قِصَرٌ لطول نجاده وتمام ساعده وفسحة باعه
ذو همة كالبرق فى إسراعه وصريمة[2] كالحَيْن فى إيقاعه
تلقى الزمان له مطيعًا سامعًا وترى الملوك الشم من أتباعه[3] »

---

(١) الطلى : الأعناق ، جمع طلية ، بضم فسكون ففتح ، أو جمع طلاء بضم ففتح .

(٢) الصريمة : العزيمة .

(٣) وردت هذه القطعة فى الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ .

ويقول ابن دراج القسطلى فى إحدى رسائل سليمان بن الحكم[١] :

« حاشا لله أن أستشف الحِسْى قبل جمومه[٢] ، وأستكره الدَّر قبل حفوله ؛ أو أتعامى عن سراج المعذرة . وأرغب عن أدب الله فى نظرة إلى ميسرة . ولكن :

ماذا تقول لأفراخ بذى مَرَخ ... حمر الحواصل لا ماء ولا شجرُ
ما أوضح العذر لى لو أنهم عذروا ... وأجمل الصبر بى ، لو أنهم صبروا
لكنهم صغروا عن أزمة كبرتْ ... فما اعتذارىَ عمن عذره الصغر ؟!

« وقد قلّبتُ لهم ظهر الأمور ، وميزت بين المعسور والميسور ، فما وجدت أحسن بدءاً ، ولا أحمد عوداً ، مما أذن الله فيه لعباده الذين أعمرهم أرضه ، وسخر لهم بره وبحره ، أن يمشوا فى مناكبها ويأكلوا من رزقه . وحيث نتقلب فى كرمك ، وأين نأمن فى حرمك . وحيث لا توحشنا دعوتك . ولا تفوتنا نعمتك . من ملكك إلى ملكك ومن يمينك إلى شمالك[٣] » .

فى هذين النموذجين السابقين يتضح أثر طريقة ابن العميد السالفة الذكر ؛ ففيهما تدعيم للنثر بالشعر ، وفيهما ميل إلى البديع وخاصة السجع والجناس والمقابلة والازدواج ، ثم فيهما انعكاسات ثقافية واضحة ، كإيراد بعض الأمثال فى النموذج الأول ، وكالاقتباس من القرآن الكريم والشعر القديم فى النموذج الثانى .

ويقول المنصور بن أبى عامر فى وصيته لابنه عبد الملك[٤] :

---

(١) هو أبو أيوب سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . وكان قد بويع بالخلافة فى منتصف ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ بعد وقعة له على محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدى الذى قام بعد الدولة العامرية .

(٢) استشفه : أتى عليه ، من استشف الإناء : شرب كل ما فيه . والحسى : مجتمع الماء . والجموم : الوفرة والكثرة .

(٣) وردت هذه الرسالة فى . الذخيرة ق ١ ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) هذه الوصية تمثل الاتجاه الجاحظى بخلاف القطعتين السابقتين فهما تمثلان الاتجاه الجديد المعتمد على الزخرفة والتطويل وتضمين الشعر .

« يا بنى ، لست تجد أنصح لك منى ، فلا تُعدِّين مشورتى ، فقد جردت لك رأيى ورويتى على حين اجتماع من ذهنى . فاجعلها مثالا بين يديك . قد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الإنفاق ، ولا تقبض لظَلَمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً ، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة . فاقصد فى أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك . والرعية استقصيت لك تقويمها . وأعظم مناها أن تأمن البادرة وتسكن إلى لين الجنبة[1] . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ؛ فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه ؛ فليس لك ولا لأصحابك شئ يقيكم الحنث فى يمين البيعة إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة. فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإنى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ، ما تمسكنا بالكتاب والسنة[2] . . . فإن انقادت لك الأمور بالحضرة ، فهذا وجه العمل وسبيل السيرة ؛ وإن اعتاصت[3] عليك ، فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تنتظر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا ما لكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من وثب عليك منهم فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف ، فانتبذ بخاصتك وغلمانك على بعض الأطراف التى حصنتها لك . واختبر غدك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك فى يد مروانى

---

(١) البادرة : ما يبدر فى الغضب من قول أو فعل . والجنبة : الاعتزال والناحية ، والجانب المجتنب .

(٢) تركت هنا جزءاً من الوصية قد لا يتعلق بالسياسة العامة قدر تعلقه بشئون أسرة المنصور . ويمكن الرجوع إليه فى صفحة ٥٧ ، ٥٨ من الذخيرة ق ٤ م ١ .

(٣) اعتاص الأمر : استدار والتاث .

ما طاوعتك بنانك ؛ فإنى أعرف ذنبى إليهم»[١] .

ويقول ابن برد الأكبر[٢] ، فى رسالة عن المظفر بن أبى عامر إلى بعض الرؤساء :

« أما بعد — آتاك الله رشدك ، وأجزل من توفيقه قسطك — فإن الله تعالى خلق الخلق غنياً عنهم ، وأنسأهم بمهل غير مهمل ، بل ليحصى آثارهم ، وليبلو أخبارهم . وجعلهم أخيافاً[٣] متباينين ، وأطواراً مختلفين ؛ فمنهم المختص بالطاعة ومنهم المبتلى بالمعصية ، وبين الفريقين أقوام خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم . ولو شاء الله لكان الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم . والسعيد من خاف ربه وعرف ذنبه ، وبادر بالتوبة قبل فواتها واستعطى الرحمة قبل منعها . وإن كنت تركت قصدك ، وخالفت رشدك ، ونكبت عن سبيل سلفك ، فلم يوحشك ممن شردت عليه مكروه نالك به ، ولم يؤنسك ممن جنحت إليه أمل لم تطمع فيه إلا لديه ؛ بل كنت آمنا المخاوف ، بعيداً عن المكاره ، قريب المكاتب ، رفيع الدرجة ، مصدراً فى أهل النصيحة والثقة ؛ خلا أنه حدث بينك وبين الحاجب مالم يزل يحدث بين القواد والعمال على قديم الزمان ، مما لم يبلغ أن يُخرج ذا الرأى الأصيل عن طبقته ، ولا يجاوز أن يزيد المحنق على المحل فى خصومته ، والله عليم أن أمير المؤمنين لم يبخسك فى تلك الهبات حظاً ، ولا أولاك إعراضاً ، ولقد اعتنى بمصلحتك وعزم على إزاحة علتك حتى يتهيأ من ذلك ما ينى بأملك لو أنظرته . واستقام فيه ما يزيد على طلبتك لو صبرت

---

(١) وردت هذه الوصية فى الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٥٦ — ٥٨ .

(٢) هو أبو حفص أحمد بن برد ، جد أحمد بن محمد برد الأصغر . وكان أبو حفص ذا حظ وافر من الأدب نثره وشعره . وكان قد قلد ديوان الإنشاء فى الدولة العامرية بعد ابن الجزيرى . وامتد أجله حتى كتب لبعض من حكموا بعد العامريين كسليمان المستعين . ومات سنة ٤١٨ هـ . (انظر فى ترجمته وبعض آثاره الأدبية : جذوة المقتبس ترجمة رقم ١٠٧ ، والذخيرة ق ١ م ١ ص ٨٤ وما بعدها) .

(٣) الأخياف : المختلفون . وإخوة أخياف : أمهم واحدة والآباء شتى .

عليه ؛ ولك فى القدر المقدور فسحة ، وفى القضاء المحتوم مندوحه ، ولن تضيق بك السبل عند أمير المؤمنين ؛ وأنت بين طاعة سالفة ، واستقامة موروثة ، وبين إنابة منتظرة ، وتوبة مستقبلة ، فإحدى الحالتين تحط الذنوب الكبيرة ، وتغطى على العيوب الكثيرة . فالآن — عصمك الله — واللبب[1] رخىّ ، والمركب وطىّ ؛ وبابك إلى رضا أمير المؤمنين مفتوح ، وسبيلك إلى حسن رأيه سهل ، ولا يذهب بك اللجاج إلى عار الدنيا ونار الآخرة . إياك ومصارع الناكثين . وحذار موارط الغادرين»[2] .

وفى هذين النموذجين يبدو أثر الطريقة الجاحظية التى سبق الحديث عنها والتى كانت سائدة فى الفترة السابقة تقريباً . وتتضح سمات هذه الطريقة خلال هذين النموذجين الأخيرين ، فى الميل إلى الجمل القصار ، والفقرات المتقابلة ، وعدم تعمد المحسنات ، باستثناء السجع الذى يأتى طبعاً بين الحين والحين ؛ ثم فى الإلحاح على المعنى وتأديته بعدة أساليب فيما يوهم التكرار وليس تكراراً . وأخيراً فى إجادة استخدام حروف الجر والظروف بعامة .

---

(١) اللبب : ما استرق من الرمل ، وما يشد فى صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل .

(٢) وردت هذه الرسالة فى الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٨٨ ، ٨٩ .